亚洲传播出版社
China Intercontinental Press
مركز البحوث والتواصل المعرفي
Center for Research & Intercommunication Knowledge

جُغرَافيَّةُ الصِّينْ



تشنغ بينغ

ترجمة: عباس جواد الكادمي

بسم الله الرحمن الرحيم

五洲传播出版社
China Intercontinental Press

مركز البحوث والتواصل المعرفي
Center for Research & Intercommunication Knowledge

جُغرافيَّة الصِّين

تشنغ بينغ

ترجمة

عباس جواد الكادمي

ⓒمركز البحوث و التواصل المعرفي ، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بينغ ، تشنغ
جغرافية الصين. / تشنغ بينغ .- الرياض ، ١٤٤٢هـ
١٥٢ص ؛ ١٧*٢٤سم

ردمك: ٠-٢٢-٨٢٦٩-٦٠٣-٩٧٨

١- الصين - جغرافيا ٢- الصين - وصف و رحلات أ.العنوان
ديوي ٩١٥,١٠٤ ١٤٤٢/٣٥٩٢

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٣٥٩٢
ردمك: ٠-٢٢-٨٢٦٩-٦٠٣-٩٧٨

صدر هذا الكتاب بالتعاون بين مركز البحوث والتواصل المعرفي ودار النشر الصينية عبر القارات China International Press.

مركز البحوث والتواصل المعرفي

حي الصحافة - طريق الثمامة - مركز أوركيد التجاري - الوحدة رقم ٦٩
ص. ب: ١٢٠٦٠ الرمز البريدي: ١٣٣١٥
الرياض - المملكة العربية السعودية

هاتف: ٣٩٦ ٦٢٠ ١١٥ ٩٦٦+
فاكس: ٣٩٦ ٦٢٠ ١١٥ ٩٦٦+ تحويلة ١٠١٢

www.crik.sa @criksa info@crik.sa

مقدمة

حقّقت الصين معجزةً اقتصادية خلال مسيرة الإصلاح والانفتاح على العالم الخارجي، وعززت قوتها الشاملة، ووطدت مكانتها في المجتمع الدولي. ومع زيادة أعداد الناس حول العالم ممن يرغبون في التعرف إلى الصين، وفهم واقعها بصورة صحيحة، جمعنا سلسلة سميناها (سلسلة الصين)، تهدف إلى تزويد القارئ بمعلومات وحقائق أساسية واضحة وموجزة عن الصين.

تشتمل (سلسلة الصين) على اثني عشر عنوانًا، هي: جغرافية الصين وتاريخها وسياساتها واقتصادها وثقافتها وقوانينها ودبلوماسيتها ودفاعها الوطني ومجتمعها، إضافةً إلى العلوم والتكنولوجيا والتعليم فيها، والمناخ في الصين والقوميات والمعتقدات الدينية. نأمل أن تساعد هذه الكتب القرّاء على اكتساب المعلومات الأساسية عن الصين، ونتطلّع إلى أن تكون هذه السلسلة رافدًا مفيدًا يعطي القرّاء فكرة عامة عنها، ولاسيما في تاريخها وثقافتها وعمقها الحضاري، إذ تُعدُّ أقدم وأطول حضارة عالمية رئيسة ممتدة على الأرض، وكذلك الأحوال الأساسية لها بوصفها أكبر بلدٍ نام في العالم ينمو على غير اتساق أو أساس متين، ويقطنها عدد هائل من السكان، وبرغم تلك الظروف، تواصل الصين انتهاج طريقها الخاص لتحقيق تنمية مستدامة ساعية، في كل ذلك، إلى التعلُّم والاستفادة من الحضارات الأخرى. ونأمل أيضًا أن تسهم هذه السلسلة في تعريف القارئ بمستقبل الصين التي تسعى، بقيادة الحزب الشيوعي الصيني، إلى مواصلة مسيرة التنمية الاقتصادية، والمضي قُدُمًا بسياسة الإصلاح والانفتاح، وبجهود الشعب الصيني لبناء مجتمع متناغم في بلده، والعمل أيضًا على بناء عالم متناغم منسجم يسوده السلام الدائم والرخاء المشترك.

يناير/ ٢٠١٠م

الفهرس

تمهيد

هناك أغنية شائعة جدًّا في الصين حاليًّا، بدايتها: «كان هناك تنين في الشرق القديم، اسمه الصين». هذه الأغنية ليست محبوبة لدى الصينيين في داخل البلاد فحسب، بل يعرفها ويعتز بها أيضًا أبناء الجاليات الصينية في أنحاء العالم. لقد اتخذ الصينيون القدامى التنين طوطمًا أو رمزًا لهم، وما يزالون حتى يومنا هذا يَرَوْنَ أنهم من سلالته. الصين دولة غنية الموارد: مناخها اللطيف، وتربتها الخصبة، ومساحاتها الخضراء الشاسعة، وغاباتها، ومروجها الواسعة، هيَّأت الظروف الملائمة للشعب الصيني ومهَّدت أمامه الطريق لتحقيق النمو والتطور والازدهار في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وفي عهود الأسر التاريخية الحاكمة في الصين، مثل أُسرتَيّ تشين وهان (٢٢١ قبل الميلاد – ٢٢٠ بعد الميلاد) وأُسرَتَيّ تانغ وسونغ المزدهرتين (٦١٨م – ١٢٧٩م)، تمتَّعت الصين بعهودٍ من السلام والرخاء، وهذا ما جعلها القوة العالمية العظمى آنذاك.



معظم أجزاء سور الصين العظيم التي نراها اليوم قد بُنيت خلال فترة أسرة منغ (١٣٦٨-١٦٤٤) وتقع شمال الصين.
الصورة تظهر قطعة السور بمنطقة جيانكو ببكين.

ومن الضروري التأكيد أنَّ للحضارة الصينية خصائص مميزةً إذا ما قورنت بالحضارات الرئيسة القديمة الأخرى في العالم، مثل: حضارة وادي النيل، وحضارة وادي الرافدين، وحضارة الهند.

تمتاز الحضارة الصينية بتاريخها الممتد لأكثر من خمسة آلاف سنة، فالمقاطع الصينية الموحدة التي طُوِّرت قبل ألفي سنة ما تزال تُستخدم حتى يومنا هذا، باختلاف بسيط جدًّا، وهو ما يجعلها أعجوبةً ثقافيةً بذاتها.

ظلَّت الصين بلدًا موحدًا وقويًّا على الدوام، برغم ظهور كثير من الأسر الإقطاعية الحاكمة على أراضيها، وهذا الأمر مثّل علامةً بارزةً ومميزةً في التاريخ الصيني.

لقد دعت الكونفوشية، التي أسسها فيلسوف الصين الأول كونفوشيوس قبل أكثر من ألفي سنة، إلى مفهوم «حب الخير»، الذي يدعو إلى المحبة والتسامح والتواصل بين بني البشر، إلى جانب مفاهيم «السلام» و«التناغم بين الطبيعة والبشر»، وهي مفاهيم ما يزال أبناء الشعب الصيني يقدسونها، وتلقى صدًى واهتمامًا واسعين في العالم أجمع.

والفضل في هذه الأخلاق يعود إلى المناخ والبيئة الجغرافية الفريدة في الصين.

أمَّا من الناحية الجغرافية، تقع الصين في شرقي قارة أورو - آسيا، التي تعدُّ أكبر قارة في العالم، ويحتضنها من الشرق، المحيط الهادئ الذي يعدُّ أكبر محيط في العالم. وبرغم وقوعها في هذه القارة، إلا أنها لا تملك مواصلات سلسة مع دول القارة ومناطقها. تتاخم الصين غابات تايجا الممتدة إلى آلاف الكيلومترات شمالاً، وتواجه في غربها صحاري شاسعة غير مسكونة تقريبًا،

وفي الجنوب الغربي تشمخ جبال عالية. أما هضبة تشينغهاي – التبت، وهي أعلى هضبة في العالم، وجبال الهمالايا التي عليها أعلى قمة جبلية في العالم (القمة الرئيسة جومولانغما)، فتشكل حاجزًا طبيعيًّا يفصل الصين عن شبه القارة في جنوب آسيا.

هناك عدة أحداث مهمة ظهرت في التاريخ حول التواصل بين الشرق والغرب، منها مثلًا: قيام تسانغ تشيان، مبعوث أسرة هان الغربية (٢٠٦ قبل الميلاد – ٢٥ بعد الميلاد) بزيارة المناطق الغربية، وذهاب شوان تسانغ، في عهد أسرة تانغ المقدسة (٦١٨م – ٩٠٧م) ، وقيام الرحالة الإيطالي ماركو بولو بجولة حول الصين خلال فترة أسرة يوان (١٢٠٦م – ١٣٦٨م)، وخلال فترة حكم الإمبراطور تشنغ تسو (١٤٠٣م – ١٤٢٤م) لأسرة مينغ، قاد البحار الصيني المسلم تشنغ خه، سبع رحلات استكشافية إلى ما يدعوه الصينيون «المحيط الغربي»، المعروف حاليًّا بالمحيط الهندي. وعلى الرغم من وجود «طريق الحرير» البري والبحري المزدهر في ذلك الوقت، إلا أنَّ الاتصالات مع الغرب كانت قليلة في عهد أسرة مينغ، لأسباب تتعلَّق بالظروف الجغرافية. لقد كان الغربيون ينظرون إلى الصين على أنها ذلك البلد الواقع فيما يُعرف بـ «الشرق الأقصى»، ويرون أنها محاطة بكثير من الغموض.

وبفضل الموقع الجغرافي المستقل بحدوده الطبيعية الفاصلة، بقيت البلاد بعيدة عن تدخل القوى الأجنبية، والذي ساهم أكثر في خلق ثقافة فريدة ظلت خالدة ومتواصلة، ومميزة تمامًا عن الثقافات الغربية. وفي المقابل شاركت هذه العزلة أيضًا في ظهور عقليات منغلقة في الماضي.

تتبنى الصين بجدية ونشاط سياسة الانفتاح على العالم منذ عام ١٩٧٨م

وحتى الآن، وترحب بالأجانب القادمين إليها، وبكل أشكال الاستثمارات ورؤوس الأموال والتقنيات. وفي الوقت نفسه، فإنها تسعى من جانبها إلى التوجُّه إلى العالم والتفاعل معه.

إنَّ معرفة جغرافية الصين شرط ضروري لكل من يريد معرفة الصين بشكل جيد. وهذا الكُتيب عن جغرافية الصين مُخصص لتعريف القارئ الكريم بالمناطق الجغرافية للبلاد كافة، والحقائق والمعلومات المتعلقة بها. وعندما يكمل القارئ قراءة هذا الكتاب، سيكتسب معلومات حديثة وشاملة عن الصين، هذا البلد الواقع في «الشرق الأقصى».

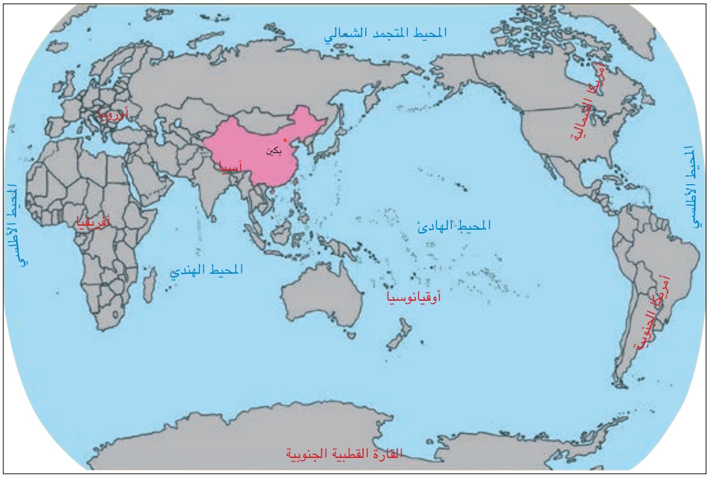


الحفرة رقم واحد من مدفن تماثيل الخيول والجنود الصلصالية لعهد الإمبراطور تشين شي هوانغ، حيث تم اكتشاف أكثر من ١٠٠٠ قطعة من الجنود وخيولهم وعرباتهم الحربية. الصورة تظهر تشكيلة مستطيلة لجنود مشاة.

لمحة عن جغرافية الصين

تعدُّ الصين إحدى الدول الكبيرة في العالم، إذ تبلغ مساحة أراضيها ٩,٦ ملايين كيلومتر مربع؛ أي ١/١٥ من إجمالي مساحة البر في العالم، وربع المساحة الإجمالية لآسيا. فهي بحجم مساحة القارة الأوروبية. وفي هذا الصدد، فإنَّ روسيا وكندا هما الدولتان الوحيدتان اللتان تمتلكان أراضي أكبر من أراضي الصين. وللصين أيضًا ٣ ملايين كيلومتر مربع من المساحات البحرية الخاضعة لها وفقًا لـ(اتفاقية الأمم المتحدة حول قانون البحار)، والاتفاقيات المعنية.

تقع الصين في القسم الشمالي من الكرة الأرضية، وجميع أقاليمها، بما فيها المساحات البحرية والجزر، تقع شمال خط الاستواء. وتمتد أراضيها من الشمال إلى الجنوب مسافة ٥٥٠٠ كم، من مركز نهر هيلونغ إلى حيد تسنغمو البحري في أقصى جنوب جزر نانشا في بحر الصين الجنوبي. وفي ظل هذه المساحة الشاسعة من الجنوب إلى الشمال، فإنَّ أشعة الشمس الدافئة تشرق على جزيرة هاينان، في حين يلف الشتاء البارد جدًّا مقاطعة هايلونغجيانغ.



خارطة توضح الموقع الجغرافي للصين في العالم

أما المسافة من أقصى شرق الصين عند نقطة التقاء نهري هايلونغ و ووسولي في بلدة فويوان بمقاطعة هايلونغجيانغ إلى أقصى غربي البلاد عند هضبة بامير بمنطقة شينجيانغ التي تتمتع بحكم ذاتي لقومية الأيغور، فتصل إلى ٥٢٠٠ كم. وعندما ترسل الشمس المشرقة أشعتها الذهبية على نهر ووسولي تكون نجوم آخر الليل ما تزال تتلألأ في سماء هضبة بامير.

تمتلك الصين حدودًا برية تصل إلى أكثر من ٢٠ ألف كم، تمتد من مصب نهر يالو على حدودها مع جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية شرقًا، إلى كازاخستان وقيرغيزستان وطاجكستان وأفغانستان وباكستان غربًا. وللصين حدود مشتركة في الشمال مع روسيا ومنغوليا، ويحدها من الجنوب الهند ونيبال وبوتان وميانمار ولاوس وفيتنام. وفي الشرق والجنوب، يواجه برُّ الصين الرئيس كلًّا من بحر بوهاي، والبحر الأصفر، وبحر الصين الشرقي، وبحر الصين الجنوبي. وتمثِّل مياه البحار حاجزًا طبيعيًّا يفصل الصين عن كلٍّ من اليابان والفلبين وماليزيا وإندونيسيا وبروناي دار السلام.

وللصين خطوط ساحلية يصل طولها إلى أكثر من ١٨ ألف كم؛ تبدأ من مصب نهر يالو في الشمال وتنتهي عند مصب نهر بيلون على حدود الصين مع فيتنام في الجنوب. ويشبه شكل الصين هلالًا يبرز نحو البحر، وتتنوَّع خطوطها الساحلية المُقسّمة بخليج هانغتشو، بين جبال في الجنوب إلى سهول رملية في الشمال. وترتفع خطوط الساحل الجبلية المتعرجة وتنخفض باستمرار، مُشكِّلة عددًا من المرافئ والموانئ الطبيعية ذات المناخ اللطيف والأجواء الجميلة، التي تسمح بحُرية الملاحة والمواصلات طوال السنة، وفي كلِّ الاتجاهات، وهذا ما يجعل الظروف الجغرافية ملائمة لبناء المرافئ وتطوير حركة الملاحة والمواصلات البحرية. كما توفر السواحل المنبسطة التي تهطل عليها الأمطار

في أيام محدودة، وشواطئ رملية رائعة تساهم في تطوير السياحة، وهناك السواحل الطينية التي تحظى بأشعة شمس قوية تساعد في تبخُّر مياه البحر بما يسهل تكوين الملح الذي تتنوع فوائده، وتتعدد استخداماته في مختلف جوانب الحياة.

وفي الصين نحو ٧٦٠٠ جزيرة متنوعة، تتوزع على المياه الإقليمية للبلاد. وتزيد المساحة الإجمالية لهذه الجزر على ٨٠ ألف كم٢، وتتمدد أكثر من ٦٥٠٠ جزيرة منها على مساحة ٥٠٠ كم٢ أو أكثر، لكلٍّ واحدة منها. وتعدُّ جزيرة تايوان التي تبلغ مساحتها ٣٦ ألف كم٢، الأكبر بين جزر الصين، تليها جزيرة هاينان التي تبلغ مساحتها ٣٤ ألف كم٢؛ والجزيرتان معروفتان منذ القِدَم أنهما «جزيرتا الكنوز»، لامتلاكهما موارد غنية وافرة، ومناظر طبيعية خلابة، وأما جزيرتا دياويوي وتشيوي شمال شرق تايوان، فتقعان في أقصى شرق الصين.

وهناك أيضًا ما يُعرف بجزر بحر الصين الجنوبي، التي تشكِّل أرخبيلًا يضم (الحاجز الرملي الشرقي) – دونغشا، و(الحاجز الرملي الغربي) – شيشا، و(الحاجز الرملي الأوسط) – وتسونغشا، و(الحاجز الرملي الجنوبي) – ونانشا. ويضم هذا الأرخبيل ٢٠٠ جزيرة، تتنوع ما بين جزر، أو صخور، أو شواطئ، أو حيود مختلفة الأحجام في بحر الصين الجنوبي. وتشمل مجموعة الجزر المهمة الأخرى في الصين كلًّا من جزر مياوداو وتشانغشان وتشوشان وجزر بنغهو. وتعدُّ جزر تشوشان في بحر الصين الشرقي منطقة سياحية معروفة على نطاق واسع، بفضل جبل بوتوه (مكان بوذي مقدس)، وكذلك وجود قاعدة صيد أسماك مشهورة، داخل الصين وخارجها، وتلقب هذه الجزر بـ«المكان المقدس للبوذية في البحر»، و«قاعدة الصيد الشرقية».

البيئة الجغرافية

يتجلَّى التفوق الطبيعي للبيئة في الصين في عدة أوجه، من المناخ إلى التضاريس إلى السِمات الأخرى لسطح الأرض. والصين من بين دول قليلة في العالم لديها أكبر عدد من المناطق المناخية، وبدءًا من الجزء الشمالي لمقاطعة هيلونغجيانغ إلى أقصى جنوب جزيرة هاينان، يوجد في الصين ٦ مناطق مناخية، وهي: الباردة، والمعتدلة، والدافئة، وشبه المدارية، والمدارية، والاستوائية. وهذا يعني أنَّ المناطق المناخية كافة موجودة في الصين، عدا التندرا (السهول الجرداء)، والتربة المتجمدة القريبة من القطبين الشمالي والجنوبي. وتعد المناطق المعتدلة والدافئة وشبه المدارية، التي تشكل معظم مساحة أراضي الصين، ملائمة بشكل خاص لحياة البشر وتطورهم؛ لما تمتلكه من مقومات مناخية مواتية، وخصائص واضحة للفصول الأربعة.



الشتاء في شمال الصين بارد وجاف. والشتاء في الجزء الشمالي الشرقي للصين طويل والصيف قصير. ويشهد هذا الجزء أيضاً الكثير من تساقط الثلوج.

لقد ساهمت مساحة الصين المترامية الأطراف في ظهور اختلافات كبيرة في أحوال المياه وظروفها، فمعدل تساقط الأمطار السنوي يصل إلى ٦٢٩ ملم، كما يبلغ الإجمالي السنوي لكمية الأمطار أكثر من ٦ تريليونات متر مكعب

في السنة. وتتأثر مناطقها المختلفة بشكل متفاوت بالرياح الموسمية الصيفية وأوقات هبوبها وتراجعها، وهذا ما ينتج عنه توزيع متفاوت للأمطار، ويسبب تناقصًا تدريجيًّا فيها من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي. والجزء الجنوبي من الصين، وخصوصًا المنطقة الساحلية الجنوبية الشرقية، يتأثر كثيرًا بالرياح الموسمية، ويتمتع بأمطار يصل معدلها السنوي إلى ١٠٠٠ ملم أو أكثر. وفي أحد المواسم، شهدت منطقة هوهشاولياو بشمال شرق تايوان سقوط أمطار وصل معدلها إلى ٨٤٠٨ ملم، وهو رقم قياسي في الصين.

أما مناطق شمال غرب الصين الواقعة في باطن بر أورو–آسيا فهي أقل تأثُّرًا بالرياح الموسمية، وتسقط عليها كمية أمطار لا يصل معدلها السنوي إلى ٢٠٠ ملم، عدا بعض الجبال العالية، والنتيجة هي أنَّ معظم مناطق هذا الجزء من الصين قد تحول إلى صحاري أو شبه صحاري. وتشهد منطقة روهتشيانغ بحوض تاريم بمنطقة شينجيانغ شمال غرب الصين، مثلًا، معدل أمطار سنوي لا يصل إلى ١٠ ملم خلال عدة سنوات، وهذا الأمر جعلها أشدَّ المناطق الصينية جفافًا.



يتمتع جنوب الصين بكميات وفيرة من الأمطار وبمناخ رطب. وتشهد مقاطعة هاينان، أقصى جنوب الصين، صيفا طويلا ومناخا دافئا رطبا طوال السنة تقريبا.



معظم مناطق سواحل الصين الشرقية تتكون من سهول منبسطة وتلال منخفضة.
في الصورة: دلتا نهر اللؤلؤ.

يتأثر مناخ الصين كثيرًا بالرياح الموسمية لشرق آسيا؛ ففي الصيف، تهب الرياح الجنوبية الشرقية مُسببةً جوًّا حارًّا ورطبًا، وتصل درجة الحرارة إلى مستويات أعلى من المناطق الأخرى الواقعة على خط العرض نفسه. وتسبب الرياح الشمالية في الشتاء أجواءً باردة وجافة، ودرجات حرارة أقل نسبيًّا من المناطق الأخرى على خط العرض نفسه. وتساعد درجات الحرارة العالية في الصيف على جعل مناطق جنوب الصين ملائمة لمحاصيل زراعية، مثل الأرز والقطن، وتساهم الأجواء الرطبة في نمو هذين المحصولين بشكل أفضل.

وتتمتع الصين بتضاريس متنوعة، فلديها مساحات كبيرة مغطاة بالجبال والهضاب والأحواض والسهول والتلال، وتحتضن كذلك مناظر طبيعية متنوعة، وتكثر فيه الجبال والهضاب والتلال، إذ تغطي نحو ٦٥٪ من أراضيه. وتشكل سلاسل الجبال العالية والطويلة السِمةَ الأساسية للتضاريس في الصين. ومن ناحية التضاريس أو الخصائص الأرضية الأخرى، فإنَّ غرب الصين أعلى من

شرقها، إذ تنحدر بشكل متتالٍ من الغرب إلى الشرق. وبهذا يمكن تقسيم طوبوغرافية أراضي الصين إلى ثلاثة سلالم متتالية، وهي: المنطقة الأولى وتضم الأراضي الواقعة شرقي سلاسل الجبال، من سلسلة جبل شينغآن الكبرى شمالاً إلى جبل تايهانغ، وإلى سلسلة جبال ووشان وشويهفنغ. ومعظم المناطق في هذا السُّلَّم هي سهول وتلال يقل ارتفاعها عن ٥٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر. وتشمل منطقة السُلم الأول أيضًا، السهول الثلاثة في الصين - سهل المناطق الشمالية الشرقية، وسهل المناطق الشمالية، والسهول حول المجريين الأوسط والأسفل لنهر اليانغتسي، إضافةً إلى منطقة التلال الكبرى جنوب شرق البلاد.

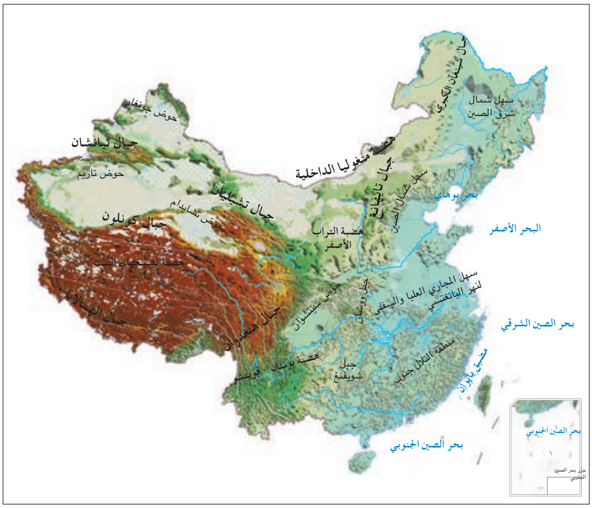


معظم أراضي غربي الصين تتكون من هضاب وجبال. في الصورة أعلى قمة في العالم: قمة تشومولانغما.

ومنطقة السُّلَّم الثاني تتضمن الأراضي الواقعة غربي سلاسل الجبال، ومعظمها هضاب وأحواض يراوح ارتفاعها بين ١٠٠٠ و٢٠٠٠م فوق مستوى سطح البحر. وهذه المنطقة تضم ثلاث هضاب رئيسة من أصل أربع في الصين، هي هضبة منغوليا الداخلية، وهضبة التراب الأصفر (اللويس)، وهضبة يوننان - قويتشو، إضافةً إلى جميع الأحواض الرئيسة الأربعة في الصين، وهي:

سيتشوان وتاريم وجونغار وتشايدام. وتشكل هضبة تشينغهاي- التبت السُّلَّم الثالث، وتتكون من هضاب مستوية ترتفع ٤٠٠٠ م فوق مستوى سطح البحر، وسلاسل طويلة من الجبال العالية يراوح ارتفاعها بين ٥٠٠٠ و٦٠٠٠ م فوق مستوى سطح البحر. وهذه الهضبة تضم أكثر من عشر قمم تصل إلى ارتفاع أكثر من ٨٠٠٠ م فوق مستوى سطح البحر. أما أعلى قمة في العالم، قمة تشومولانغما، فتقع على حدود الصين مع نيبال، وتشمخ إلى ارتفاع ٨٨٤٤,٤٣ م فوق مستوى سطح البحر، جاعلة هضبة تشينغهاي – التبت «سقف العالم».

إنَّ الانحدار الطبيعي لطبوغرافية أراضي الصين يُسهِّل هبوب رياح البحر الرطبة على مناطق الصين الداخلية. وهناك كثير من الأنهار، التي تتشكل من مياه الأمطار، فتساعد في ربط المناطق الداخلية بالمناطق الساحلية من حيث المواصلات، وليس هذا فحسب، بل توفر أيضًا موارد هائلة مستمدة من طاقة المياه، إذ تتهادى هذه الأنهار على أراضٍ منحدرة، بمناسيب مياه مختلفة. واستغلالًا لهذه الميزة الطبوغرافية المنحدرة، شُيِّد عدد من محطات الطاقة الهيدروليكية في وديان نهر اليانغتسي والنهر الأصفر.



خارطة توضح الطبيعة الطبوغرافية التي تشبه السُلَّم للصين.

الموارد الطبيعية

تشكِّل الموارد الطبيعية جزءًا لا يتجزَّأ من البيئة الطبيعية للصين، التي تتكون أساسًا من الأراضي والمياه والمناخ والموارد الأحيائية والمعادن. الصين غنية بالموارد التي يمكن استخدام معظمها. إذ تبلغ مساحة أراضيها الصالحة للزراعة ١,٣ مليون كم٢، مُشكِّلةً ١٣,٥٪ من إجمالي مساحتها. والأراضي الزراعية موزعة في السهول الشمالية الشرقية، وفي الشمال، وحول المجريين الأوسط والأسفل لنهر اليانغتسي وحوض سيتشوان، ومنطقة دلتا نهر اللؤلؤ. وكنتيجة طبيعية، تشهد زراعة المحاصيل، مثل القمح والذرة والأرز، نموًّا مطردًا في هذه المناطق.



أشجار التنوب الفضي، من الأنواع النادرة والنفيسة في الصين، تحظى بحماية من الدرجة الأولى على المستوى الوطني. واكتسبت اسمها هذا من بقع اللون الفضي التي تكسو أوراقها الخضراء.

وتغطي الغابات في الصين مساحة ١,٧٥ مليون كم مربع، محتلة ١٨,٢٪ من إجمالي مساحة البلاد. وتتوزَّع الغابات بشكل لافت في: أولًا، على جبال شينغآن الكبرى، وجبال شينغآن الصغرى، وجبال تشانغباي شمال شرق الصين، وهي الأكبر من نوعها في البلاد، وتتكون من أشجار الصنوبر الكوري واللاريس

والأشجار عريضة الأوراق. ثانيًا، في مناطق جبال هنغدوان على حدود سيتشوان ويونان والتبت، وهي ثاني أكبر منطقة غابات في الصين، وتتكون في معظمها من أشجار التنوب بأنواعها. ثالثًا، مناطق الغابات في مقاطعة هاينان وفي شيشوانغ بأننا بمقاطعة يونان، حيث غابات الأمطار الاستوائية النادرة في مناطق أخرى من البلاد. وتبلغ مساحة أراضي المروج والأعشاب في الصين أكثر من ٤ ملايين كيلومتر مربع، محتلة ٤١,٦٪ من إجمالي مساحة أراضي البلاد. وتبرز المروج بكثافة في هضبة منغوليا الداخلية وهضبة التراب الأصفر(اللويس)، وفي مناطق شمال جبل تيانشان بمنطقة شينجيانغ وجنوبها، وفي هضبة تشينغهاي - التبت. وتمثل هذه المروج بيئة مهمة لتربية المواشي، التي توفر اللحوم والحليب والصوف والجلود والمنتجات المتعلقة الأخرى. وتغطي البحيرات والبِرك مساحة ٦٧,٥ ألف كيلو متر مربع، وتُشكل مصادر طبيعية مهمة لأنواع هائلة من المنتجات المائية، مثل الأسماك والروبيان والجمبري.



الظبي التبتي، يأتي على رأس قائمة الحماية الوطنية. في الصورة ظبي بالغ يبدو وجهه بلون أسود وساقاه ببقع داكنة أيضاً، وله قرنان يشبهان العود الرأسي.

وتتمتع الصين بمعدل سقوط أمطار سنوي يصل إلى ٦ تريليونات متر مكعب، وتتدفق المياه في الأنهار بمعدل ٢,٧ تريليون متر مكعب. وبفضل الموارد المائية البالغة ٢,٨ تريليون متر مكعب، تحتل الصين المرتبة السادسة عالميًّا في هذا المجال، بعد البرازيل وروسيا وكندا والولايات المتحدة وإندونيسيا. لكن العدد الهائل لسكانها تسبب في خفض معدل مواردها المائية لكل فرد إلى ربع المعدل العالمي. إلى جانب ذلك فإن الموارد المائية في الصين موزعة بشكل غير متساوٍ، إذ تتمتع المناطق الجنوبية والشرقية بوفرة واضحة فيها. ومن زاوية أخرى ووفقًا للتقديرات، تتمتع الصين باحتياطي كبير من الطاقة الهيدروليكية يبلغ ٦٧٦ مليون كيلوواط. وكمية سعة توليد الكهرباء بهذه الطاقة هي الأعلى في العالم، إذ تصل إلى ٣٧٨ مليون كيلوواط.



السعدان الذهبي بمقاطعة يونان، من الأحياء النادرة والنفيسة الخاصة بالصين، ويوجد بشكل رئيسي في الجبال العالية في الأجزاء الشمالية الغربية للمقاطعة، وجنوب غرب التبت.

كما تمتلك الصين نحو ١٦٠صنفًا أو نوعًا من احتياطي المعادن، من ضمنها أكثر من عشرين نوعًا من المعادن يحتل احتياطيها مركز الصدارة في العالم. وهناك ١٢ نوعًا من احتياطي المعادن، تحتل المركز الأول في العالم، وهي: التنغستن، والإنتيمون، والتيتانيوم، والفاناديوم، والزنك، والتربة النادرة،

والمغنيسيت، والبايرايت، والفلورايت، والبارايت، والجبس، والغرافيت. وتمتلك الصين أيضًا احتياطيًا كبيرًا، ويحتل المركزين الثاني والثالث عالميًا في ستة معادن، هي: القصدير، والزئبق، والأسبستوس، ومسحوق الطلق، والفحم، والمولبيدنوم. وتحتل أيضًا المركز الرابع عالميًا من حيث احتياطي النيكل، والرصاص، والحديد، والمنغنيز، والبلاتينيوم. وللصين ثالث أكبر احتياطي مشترك لـ٤٥ معدنًا رئيسًا في العالم.

وتمتاز الصين بالموارد الحيوانية والنباتية الوفيرة أيضًا. ففيها ٣٢٨٠٠ نوع من النباتات العليا، و١٠٤ آلاف نوع من الحيوانات. وفيها أنواع نادرة جدًّا من الحيوانات والنباتات، مثل البندا العملاق، والسعدان الذهبي، وتمساح اليانغتسي، والدولفين الأبيض بنهر اليانغتسي، وشجرة الميتاسكوايا النادرة، وتنوب تايوان، وسرو فوجيان، كلها تمثل أحافير حية مميزة للصين، ولا توجد في أماكن أخرى غيرها.

وتمكَّنت الصين من بناء عدة محميات طبيعية لحماية الأنواع النباتية والحيوانية والبيئة الإيكولوجية فيها، ومن بينها ١٩ محمية تعدُّ جزءًا من برنامج الأمم المتحدة لـ«الإنسان ومحيطه الحيوي».

وهي تمتاز أيضًا بمناطق بحرية واسعة، منها ١٣٣ ألف كم مربع من المياه البحرية الضحلة والشواطئ، ٢٦ ألف كم٢ من هذه المياه ملائمة لتربية الأحياء، و٤٣٠٠ كم٢ تعدُّ مناطق مِلحية، وهذا ما يجعل الصين دولة غنية بالموارد البحرية، وذلك باحتضانها لما يربو عن ٢٦٠٠ نوع من الأسماك، أكثر من ٥٠ نوعًا منها تجاري، تسهم جميعها في تطوير قطاع تربية الموارد البحرية في البلاد ونموه. ويوجد في مناطق الصين البحرية أيضًا أكثر من ٣٠ نوعًا من الموارد الطبيعية، منها النفط، والغاز الطبيعي، والحديد، والنحاس، والأباتاتيت،

والغلوكونايت. وقد استُخرج بعض منها واستُغلَّ في مناطق التنقيب وحقول النفط قبالة سواحل بحر بوهاي وخليج الشمال. وتقدَّر كمية الطاقة الكامنة المحتملة للصين في المحيطات بنحو ٥٤٠ مليون كيلوواط، طُوّر قسم منها، في مشروعات الطاقة الهيدروليكية المُستخدِمة لتيارات المد.

وبرغم هذه الكميات الكبيرة من الموارد المتنوعة في الصين، إلا أنَّ عدد سكانها الهائل قد قلَّل معدل الموارد من الأرض والمياه والمعادن بالنسبة إلى الفرد الواحد فيها. وتختلف كمية الموارد وتتنوَّع من منطقة إلى أخرى. فعلى سبيل المثال، تبلغ كمية احتياطي الفحم مجتمعة في شنشي وشانشي ومنغوليا الداخلية، أكثر من ٧٠٪ من الإجمالي الوطني البالغ ٧٦٠ مليار طن، وفي المقابل يوجد في المقاطعات التسع الجنوبية ١,٤٪ فقط من الفحم. ومعظم احتياطيات النفط المؤكدة القابلة للاستخراج تتوزع في شمال شرق، وشمال غرب، ومناطق السواحل الشمالية للبلاد. وتهيمن سيتشوان وشنشي وشينجيانغ على الحصة الأكبر من احتياطيات الغاز الطبيعي في الصين. كما أنَّ موارد المياه هي الأخرى موزعة بشكل غير متساوٍ، وتتركز في المناطق جنوب جبل تشينلينغ - نهر هوايخه في مناطق شرق الصين. وتشكل الأراضي الصالحة للزراعة هناك ٣٦,٣٪ فقط من الإجمالي الوطني، لكنها تستحوذ على ٨٢,٣٪ من مجمل الموارد المائية للبلاد. في المقابل، تتمتع الأراضي الواقعة شمال جبل تشينلينغ - نهر هوايخه بنحو ٦٣,٧٪ من الأراضي الزراعية، ولا تملك سوى ١٧,٧٥٪ من الموارد المائية الإجمالية للبلاد.

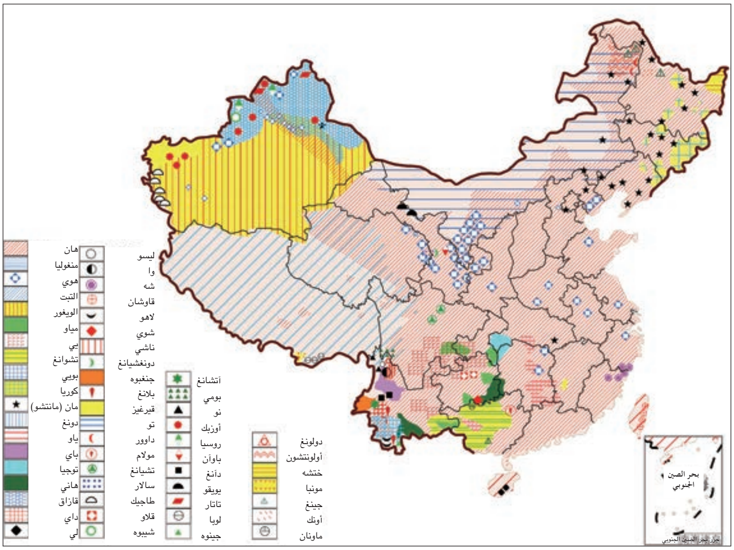
ويفتقر الجزء الشمالي الغربي من الصين كثيرًا لموارد المياه، إذ يحظى بـ٥٪ فقط من إجمالي الموارد المائية، مع أنَّ مساحة أراضيه تشكل ثلث المساحة الإجمالية للبلاد. وتتفاوت موارد الطاقة الهيدروليكية هي الأخرى

بين مناطق الصين، إذ يتركز ٧٠٪ منها في مناطق جنوب غرب البلاد. وبسبب هذا التفاوت وعدم التوازن في توزيع الموارد المائية والطاقة، تسعى الصين إلى تكثيف بحوثها العلمية وخططها الشاملة، واتخاذ الخطوات اللازمة لبناء خطوط سكك حديدية جديدة، أو خطوط حديدية مزدوجة لتسهيل نقل مصادر الطاقة، كالفحم، من الشمال إلى الجنوب. وتعمل الصين أيضًا على تسريع الخطى لإكمال مشروع نقل المياه من الجنوب الريّان إلى الشمال الظمآن، حيث تنقل مياه نهر اليانغتسي إلى شمال البلاد.

السكان والقوميات

تُعدّ الصين أكبر دول العالم سُكانًا، وأظهر التعداد السكاني العام الخامس للسكان الذي جرى في ١ نوفمبر عام ٢٠٠٠م، أنَّ في الصين ١,٢٩٥ مليار نسمة. وقد وصل العدد في عام ٢٠٠٨م إلى ١,٣ مليار نسمة، أي ما يمثل ٢٠٪ من إجمالي سكان العالم. وفي الصين أيضًا، أعلى كثافة سكانية في العالم. فقد أوضحت معطيات التعداد السكاني المذكور أعلاه أنَّ فيها كثافةً سكانيةً تصل إلى ١٣٤ شخصًا لكل كيلومتر مربع، أي أكثر بثلاث مرات من المعدل العالمي. ويتوزّع سكان الصين بصورة غير متساوية. فالمناطق الشرقية تضم أكبر كثافة سكانية، ولا سيَّما المناطق الساحلية الجنوبية الشرقية، إذ تصل فيها الكثافة السكانية إلى ما بين ٥٠٠ - ٦٠٠ شخص لكل كم مربع. في المقابل فإنَّ المناطق الغربية للبلاد، لا تشهد مثل هذه الكثافة السكانية، التي تصل في معظمها إلى معدل ١٠ أشخاص لكلِّ كم٢. في عام ٢٠٠٥م، بلغ عدد سكان المناطق الحضرية في الصين ٥٤٣ مليون نسمة، أي ٤١,٧٧٪ من إجمالي سكان البلاد. بينما يسكن ٧٥٧ مليونًا في الأرياف، مستحوذين على النسبة الأكبر من إجمالي السكان بنسبة ٥٨,٢٣٪.

لقد شهدت الصين زيادة كبيرة في النمو السكاني خلال مدة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي. وتشير الإحصاءات إلى أنَّ عدد السكان ارتفع من ٥٤٠ مليونًا، في عام ١٩٤٩م إلى ٨٠٠ مليون في عام ١٩٦٩م. وأسهمت سياسة تنظيم الأسرة في الصين، التي بدأ تطبيقها في سبعينيات القرن الماضي، في خفض معدل الإنجاب من ٣٤,١١ في الألف عام ١٩٦٩م إلى ١٢,٢٩ في الألف عام ٢٠٠٤م. وانخفض كذلك معدل الزيادة الطبيعية من ٢٦,٠٨ في الألف إلى ٥,٨٧ في الألف. وهذا يعني أنَّ سياسة تنظيم الأسرة في الصين ساعدت على خفض السكان بأكثر من ٣٠٠ مليون نسمة، وذلك على أساس معدل الزيادة السكانية عام ١٩٧٠م.



خريطة توزيع القوميات في الصين.

وفي الصين ٥٦ قومية، وتمثل قومية هان القسم الأكبر منها، إذ تحتل ٩٢٪ من إجمالي سكان الصين. وتشكل القوميات الأخرى النسبة المتبقية من سكان البلاد؛ ولذلك يُشار إليها بالأقليات القومية. ومن بين الـ٥٥ أقلية قومية هناك تسع أقليات يصل عدد أبنائها إلى خمسة ملايين أو أكثر، وهي تشوانغ، ومان،

وهوي، ومياو، والأيغور، وتوجيا، ويي، ومنغوليا، والتبت. ويتجاوز عدد أبناء قومية تشوانغ ١٥ مليونًا، وهذا ما يجعلها الأكبر بين شقيقاتها من الأقليات القومية الأخرى. بخلاف ذلك، هناك سبع أقليات قومية أخرى يبلغ عدد أفراد كل منها أقل من مئة ألف نسمة، ولذلك يُشار إليها بالأقليات القومية الأقل عددًا أو الأصغر. هي: منبا، وألونتشون، ودولونغ، والتتار، وختشه، وقاوشان، ولوبا.

وينتشر أبناء قومية هان في كل أرجاء الصين تقريبًا، ويتركزون بصورة أكبر في المناطق المحيطة بنهر اليانغتسي والنهر الأصفر وأحواض دلتا نهر اللؤلؤ، والمناطق الشمالية الشرقية للبلاد. وبرغم تعدادها القليل، تنتشر الأقليات القومية الـ٥٥ الأخرى على نطاق واسع في أرجاء البلاد أيضًا، فتتركز قوميتا الأيغور والتبت في مناطق منغوليا الداخلية وشينجيانغ، وقومية تشوانغ في وقوانغتشي، وتتركز في نينغشيا قومية هوي التي تنتشر أيضًا في مقاطعات هيلونغجيانغ، وجيلين، ولياونينغ، وقانسو، وتشينغهاي، وسيتشوان ويوننان، وقويتشو، وهونان، وهوبي.

ويقطن في مقاطعة يوننان ٢٥ أقلية قومية، يبلغ عدد أفراد كل منها ٥٠٠٠ أو أكثر، وهذا ما يجعلها تصبح حاضنة لأكبر عدد من الأقليات القومية. إنَّ كل قومية هي عضو في أسرة الأمة الصينية، وسياسة الدولة إزاء القوميات هي المساواة بين مختلف أنواعها، ويُمنح كلٌّ منها حقوقه المشروعة ويُرعى وتُحمى مصالحه المشروعة، ويُحظر أيّ تمييز ضدها أو أي اضطهاد لها. وتعارض الصين شوفينية القومية الكبرى أو شوفينية القومية المحلية، ولا تسمح بأيِّ نشاط يُلحق الضرر بالوحدة الوطنية. لكلِّ أقلية قومية الحق والحرية لاستخدام لغتها المنطوقة والمكتوبة وتطويرها، وتتمتع بحرية الحفاظ على عاداتها

وتقاليدها وإحيائها. تطبِّق الصين نظام الحكم الذاتي القومي الإقليمي، المستند إلى التقسيمات الإدارية الوطنية، وأقامت الحكومة هيئات الحكم الذاتي لممارسة الحكم في المناطق التي تقطنها غالبية من أبناء الأقليات القومية، بما يساعدها على أن تكون صاحبة القرار فيما يتعلق بالقضايا المهمة المتعلقة بمستقبلها ومصيرها. وفي الصين خمس مناطق للحكم الذاتي على مستوى المقاطعة، وهي: قوانغتشي، ومنغوليا الداخلية، وشينجيانغ، ونينغشيا، والتبت. وهناك عدد من أقاليم الحكم الذاتي على مستوى ولاية، ومحافظة، وناحية، وبلدة.

وفقًا للدستور الصيني، يمكن وضع التقسيم الإداري للبلاد على ثلاثة أجزاء، وهي:

١- تقسم الصين إلى مقاطعات، ومناطق ذاتية الحكم، وبلديات مركزية.

٢- تقسم المقاطعات والمناطق ذاتية الحكم إلى ولايات ذاتية الحكم، ومحافظات، ومحافظات ذاتية الحكم، ومدن.

٣- تقسم المحافظات والمحافظات ذاتية الحكم إلى نواحٍ، ونواح قومية، وبلدات.

وتكون هذه البلديات المركزية والمدن الكبيرة، نسبيًّا، مُقسمة إلى محافظات وأحياء. ويحق للدولة، وفقًا للدستور، أن تنشئَ مناطق إدارية خاصة عند الضرورة، وتصبح هذه المناطق خاضعة إداريًّا للحكومة المركزية. والمناطق والمحافظات والنواحي والبلدات ذاتية الحكم، مخصصة للحكم الذاتي للأقليات القومية في البلاد. أما النواحي والبلدات فهي مناطق إدارية على المستوى القاعدي، وتنتشر في عموم البلاد. وتقسّم الهيئات المحلية في الصين الحديثة إلى أربعة مستويات، وهي: المقاطعات، والمحافظات،

والنواحي، والبلدات. وهناك ٣٤ على المستوى الأول، وهي: ٢٣ مقاطعة، وخمس مناطق ذاتية الحكم، وأربع بلديات مركزية، ومنطقتان إداريتان خاصتان، وهما هونغ كونغ، وماكاو.

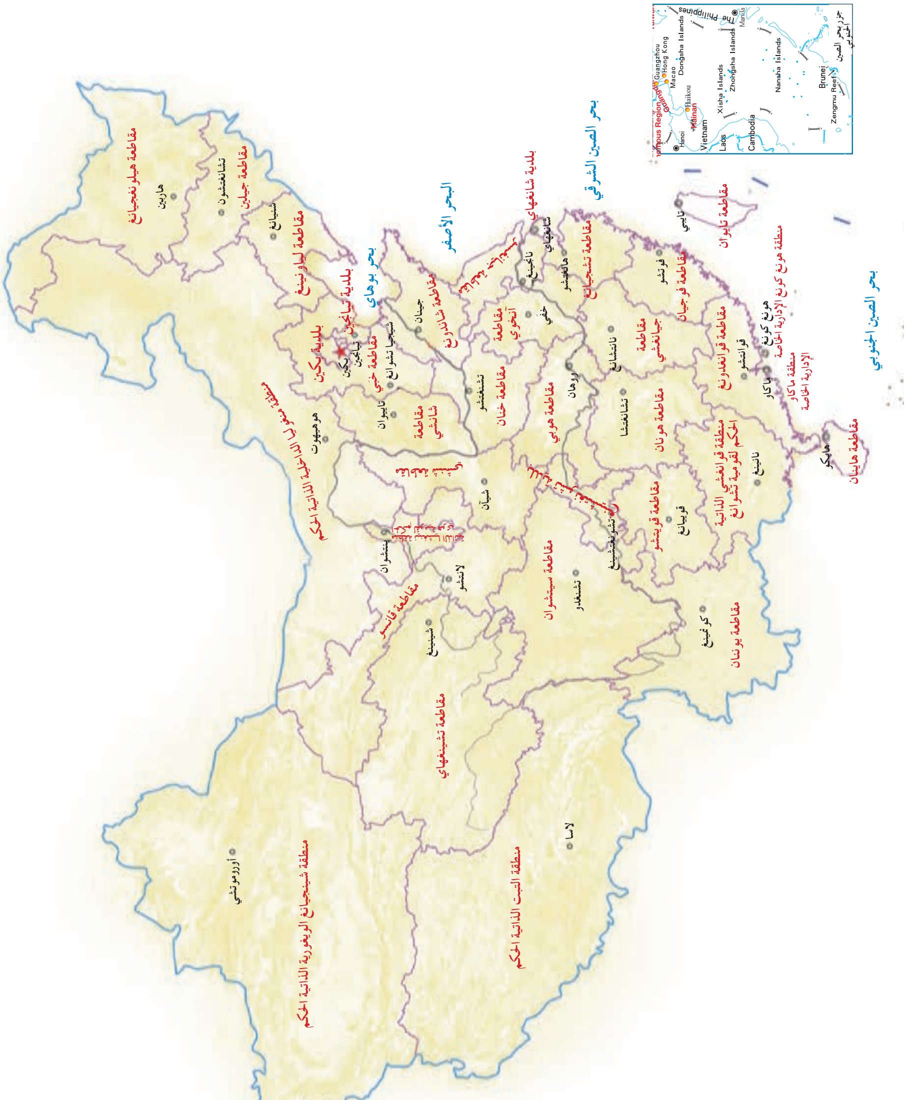
ومنذ عام ١٩٧٨م، بدأت الصين تطبيق سياسة الإصلاح والانفتاح، فأضيفت مدن تحت مستوى المقاطعة، بين مستويي المقاطعة والمحافظة، وهي حواضر المقاطعات والمدن الكبيرة نسبيًا، التي يُصادق عليها مجلس الدولة الصيني.

جدول التقسيم الإداري في جمهورية الصين الشعبية

الاسم	مقر الحكومة	المساحة (كلم٢)
بلدية بكين	بكين	١٦٨٠٧
بلدية تيانجين	تيانجين	١١٣٠٥
مقاطعة خَبي	شيجيا تشوانغ	١٩٠٠٠٠
مقاطعة شنشي	تايوان	١٥٦٠٠٠
منطقة منغوليا داخلية الحكم	هوهيهوت	١١٨٣٠٠٠
مقاطعة لياونينغ	شنيانغ	١٤٥٧٠٠
مقاطعة جيلين	تشانغتشون	١٨٧٤٠٠
مقاطعة هيلونغجيانغ	هاربين	٤٥٤٠٠٠

بلدية شانغهاي	شانغهاي	٦٣٤٠
مقاطعة جيانغسو	نانجينغ	١٠٢٦٠٠
مقاطعة تشجيانغ	هانغتشو	١٠١٨٠٠
مقاطعة آنخوي	خفَي	١٣٩٦٠٠
مقاطعة فوجيان	فوتشو	١٢١٤٠٠
مقاطعة جيانغشي	نانتشانغ	١٦٦٩٤٧
مقاطعة شاندونغ	جينان	١٥٧١٠٠
مقاطعة خنان	تشنغتشو	١٦٧٠٠٠
مقاطعة هوبي	ووهان	١٨٥٩٠٠
مقاطعة هونان	تشانغتشا	٢١١٨٧٥
مقاطعة قوانغدونغ	قوانتشو	١٧٩٨٠٠
منطقة قوانغشي ذاتية الحكم لقومية تشوانغ	نانينغ	٢٣٦٣٠٠
مقاطعة هاينان	هايكو	٣٤٠٠٠
بلدية تشونغتشينغ	تشونغتشينغ	٨٢٤٠٠
مقاطعة سيتشوان	تشنغدو	٤٨٥٠٠٠

مقاطعة قويتشو	قوييانغ	١٧٦١٠٠
مقاطعة يونان	كونمينغ	٣٩٤٠٠٠
منطقة التبت ذاتية الحكم	لاسا	١٢٢٨٤٠٠
مقاطعة شانشي	شيآن	٢٠٥٦٠٠
مقاطعة قانسو	لانتشو	٤٥٥٠٠٠
مقاطعة تشينغهاي	شينينغ	٧٢٢٠٠٠
منطقة نينغشيا ذاتية الحكم لقومية هوي	ينتشوان	٦٦٤٠٠
منطقة شينجيانغ الأيغورية ذاتية الحكم	أوروموتشي	١٦٦٠٠٠٠
منطقة هونغ كونغ الإدارية الخاصة	هونغ كونغ	١٠٩٨
منطقة ماكاو الإدارية الخاصة	ماكاو	٢٥,٤
مقاطعة تايوان	تايبي	٣٦٠٠٠



خريطة التقسيم الإداري للصين.

مناطق الرياح الموسمية الشرقية

استنادًا إلى ظروف طبيعية متنوعة ومتعددة، يمكن تقسيم الصين إلى ثلاث مناطق كبيرة، وهي: مناطق الرياح الموسمية الشرقية، والمناطق الداخلية الشمالية الغربية، ومناطق هضبة تشينغهاي – التبت. وهذه المناطق الثلاث يمكن تقسيمها كذلك إلى سبع مناطق جغرافية، وهي: الشمالية الشرقية، والشمالية، والمجاري الوسطى والسفلى لنهر اليانغتسي، والجنوبية، والجنوبية الغربية، والشمالية الغربية، وهضبة تشينغهاي – التبت. ولكلِّ منطقة من هذه المناطق سحرٌ خاص، وخصائص مميزة، فيما يتعلق بكلٍّ من البيئة الطبيعية والمشهد الثقافي.

ويتأثر برُّ الصين الرئيس، وخصوصًا المناطق الشرقية، بالرياح الموسمية لشرقي آسيا. وتشمل منطقة الرياح الموسمية الشرقية مقاطعات هيلونغجيانغ، وجيلين، ولياونينغ، وخبَيّ، وشاندونغ، وشنشي، وخنان، وشانشي، وجيانغسو، وآنهوي، وجيانغشي، وهونان، وهوبي، وفوجيان، وتايوان، وقوانغدونغ، وهاينان، وسيتشوان، ويوننان، وقويتشو، ومنطقة قوانغشي ذاتية الحكم، وبلديات بكين وشانغهاي وتيانجين وتشونغشينغ، ومنطقتي هونغ كونغ وماكاو الإداريتين الخاصتين. وتتميز منطقة الرياح الموسمية الشرقية أيضًا بظروفها الطبيعية الجيدة، وبكثافتها السكانية واقتصادها المتنامي.

منطقة شمال شرق الصين

تشمل هذه المنطقة مقاطعات هيلونغجيانغ، وجيلين، ولياوننغ. وتتاخم هذه المنطقة روسيا من الشمال، وجمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية من الشرق، وخُبَيّ في الجنوب؛ وبذلك تتمتع هذه المنطقة بخصائص ذاتية مميزة.

تنمية متأخرة لكن سريعة

منذ قديم الزمان، ظلت الأقليات القومية تعيش في الجزء الشمالي الشرقي من الصين. وخلال عهد أسرة مينغ الحاكمة (١٣٦٨م - ١٦٤٤م)، عزّز الأباطرة والحكام الدفاعات على طول سور الصين من ممر شانهاي إلى ممر جيايوي. وفرضوا مزيدًا من القيود على هجرة سكان المناطق الداخلية وتنقلاتهم إلى المناطق الشمالية الشرقية، من أجل حماية الأقليات القومية وثقافاتها. ولم تحدث هجرة كبيرة لمهاجرين من المناطق الداخلية إلا في أواسط عهد أسرة تشينغ وأواخره (في القرن الثامن عشر)، وبتشجيع من الحكام آنذاك. لكن ذلك لم يغيِّر الحال كثيرًا في الجزء الشمالي من المناطق الشمالية الشرقية قليلة السكان، فهناك كثير من الأراضي البور التي تحتاج للاستصلاح.



وفي مطلع القرن العشرين، شهدت المناطق الشمالية الشرقية من الصين تطورًا ملحوظًا وصل ذروته بفضل تأسيس كثير من الصناعات الحديثة

وتطورها. وهاجرت أعداد هائلة من المواطنين إلى المناطق الشمالية الشرقية بعد بناء شبكات النقل بالسكك الحديدية وتطور قطاعات التحريج والصناعة والتعدين، وهذا الأمر رفع الكثافة السكانية في تلك المناطق. وفي خمسينيات القرن المنصرم، أنفقت الصين أموالًا هائلة لتطوير مناطق السهول الشمالية، وبنت عددًا كبيرًا من الحقول الزراعية الواسعة ذات الآليات المتطورة.

وبالمقارنة مع مقاطعات داخلية أخرى، تشهد لياونينغ كثافة سكانية عالية، في حين تتميز هيلونغجيانغ بكثافة سكانية منخفضة، وتتموضع جيلين في الوسط بينهما من حيث معدل الكثافة السكانية. يشكل أبناء قومية هان ٩٠٪ من معدل عدد المواطنين الذين يسكنون المناطق الشمالية الشرقية للبلاد والبالغ نحو ١٠٠ مليون مواطن. وتتقاسم الأقليات القومية الأخرى التي تقطن المنطقة؛ وهي مان، ومنغوليا، وكوريا، وداهور، وألونتشون، وهوي النسبة المتبقية.



ضباب الصقيع، أو ما يسمى «المعلق على الشجرة» في الصين، هو ظاهرة طبيعية شائعة في المناطق الشمالية الشرقية. تكوين ضباب الصقيع مرتبط بشكل وثيق بالطقس البارد ورطوبة الهواء.

يتبع الناس في شمال شرق الصين عادات وثيقة الارتباط بالبيئة الطبيعية هناك. فالناس فيها يتمتعون بشخصية لطيفة وكريمة؛ وذلك بفضل حياتهم على أرض خصبة قليلة السكان لمدة طويلة. ولدى السكان التقليديين بالمنطقة مساكن مبنية بجدران سميكة تقيهم برد الشتاء وتبقي مساكنهم دافئة. وبسبب البرد أيضًا، يفضل معظمهم النوم على سُررٍ تُسخّن بنوع من القرميد الحار يوضع تحتها، وهم يشربون الكحول ويتناولون اللحم الدسم. ولكن كثيرًا من المواطنين الذين هاجروا إلى المناطق الشمالية الشرقية من أماكن أخرى بالبلاد، ظلوا يتبعون العادات المعروفة في المناطق الداخلية، وخصوصًا فيما يتعلق بمراسم الزواج أو الأعياد القومية.

تعد مناطق شمال شرقي الصين من أوّل المناطق التي احتضنت الصناعات الحديثة، لذلك يشكل العمال نسبة عالية من السكان في شنيانغ، وتشانغتشون، وهاربين، ومدن كبيرة أخرى. ويتمتع معظم سكانها بمستوى عالٍ ثقافيًا. وكثير ممن جرى تشغيلهم بعد الخطوات الواسعة لتأسيس الصناعات ومؤسسات التعدين كبيرة الحجم، يتميزون بمستوى ثقافي جيد وكفاءات عمل قوية.

مناظر طبيعية رائعة وموارد وافرة

تتمتع مناطق شمال شرق الصين بظروف طبيعية ممتازة كما أسلفنا. فهي محاطة بجبال شينغآن الكبرى من الغرب، ونهر هيلونغ، وجبال شينغآن الصغرى من الشمال، وجبل تشانغباي، ونهر يالو من الشرق، وهذا يمنحها سهلًا خصبًا واسعًا في جزئها الأوسط، وهو سهل شمال شرق الصين. الذي يعد أكبر السهول، إذ يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أجزاء، وهي: سهل نهر لياوخه في الجنوب، وسهل سونغنن (نهر سونغهوا ونهر ننجيانغ) في الشمال، وسهل سانجيانغ

(أنهار هايلونغ، وسونغهوا، وووسولي) في الشمال الشرقي. والشتاء في سهل شمال شرق الصين بارد جدًّا وطويل، ولا يخلو من الصقيع سوى في فترة قصيرة. بينما الصيف دافئ يساعد على تحقيق موسم حصاد واحد. لقد ساهمت التربة الخصبة في هذه المناطق في تطوير زراعة عالية المستوى، وهذا الأمر جعل هذه المنطقة قاعدة حيوية لإنتاج محاصيل الحبوب.

تشمل محاصيل الحبوب في شمال شرق الصين الذرة بأنواعها، وفول الصويا والدخن، والقمح والأرز الربيعيين. وتمثّل الذرة بأنواعها أكبر محصول في المنطقة، وتتميز بمردودٍ عالٍ، وخصوصًا النوع المعروف بالذرة الرفيعة الحمراء. وتتميز هذه المناطق أيضًا بزراعة فول الصويا الممتاز، وتحتل هيلونغجيانغ المركز الأول في زراعته وإنتاجه على مستوى البلاد. وهذه المقاطعة تحتضن أيضًا معظم زراعة القمح الربيعي، وتتمتع أراضيها المستصلحة خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الماضية، والمزروعة به بتقنيات عالية ومحصول وافر. وتعد مناطق شمال شرق الصين موطنًا لزراعة الشمندر والكتّان أيضًا.



الغابات في مناطق شمال شرق الصين تعتبر أكبر قاعدة لإنتاج الأخشاب. في الصورة: جزء من الغابات العذراء في جبال شينغآن الكبرى.

وجبال هذه المناطق مكسوة بالغابات وغنية بها، بحيث أصبحت أكبر منطقة غطاء غابي بالصين وأكثفها. وتوفر غابات الأركس الغطاء الرئيس في جبال شينغآن الكبرى، بينما تغطي جبل تشانغباي غابات الصنوبر والأشجار عريضة الأوراق، ومنها الصنوبر الصيني، والصنوبر الكوري، وأنواع أخرى من الأشجار،

وتنتج من هذه الغابات أجود أنواع الأخشاب، وخصوصًا من جبال شينغآن الصغرى؛ نظرًا لوجود أشجار الصنوبر الأحمر فيها. إلا أنَّ تناقص الغابات على مدى سنوات جعل من النادر رؤية الغابات العذراء في شمال شرق الصين، عدا القسم الشمالي من جبال شينغآن الكبرى.

وتشكل الغابات في شمال شرق الصين موطنًا لكثير من الأنواع النادرة من النباتات والحيوانات، ومنها «الكنوز الثلاثة لشمال شرق الصين»: نبتة الجنسن، وفرو السمور، وقرن الأيل الوبري. وبعد سنوات من الجهود، أصبح بإمكان الناس زراعة نبتة الجنسن وتربيتها على نطاق واسع في المناطق الجبلية، وتربية الأيل والسمور وتحقيق التكاثر الاصطناعي لهما. أما جبل تشانغباي فهو موطن النمر الخاص بشمال الصين الشرقي، الذي يعرف بأنه أكبر حيوان من فصيلة القطط في العالم، ويواجه خطر الانقراض بسبب الصيد وفقدان الموطن الملائم لعيشه وتكاثره. ولحماية الحيوانات والنباتات النادرة، وكذلك من أجل إجراء البحوث العلمية في هذا الصدد، بنت الحكومة الصينية عددًا من المحميات الطبيعية، وخصوصًا على جبل تشانغباي، وفي جبال شينغآن الصغرى. وقد أصبحت المحمية الطبيعية على جبل تشانغباي، وهي أكبر المحميات الطبيعية مساحة، جزءًا من برنامج الأمم المتحدة للإنسان ومحيطه الحيوي.

قاعدة صناعية ثقيلة

تتنعم مناطق شمال شرق الصين، وخصوصًا شنيانغ الواقعة وسط مقاطعة لياونينغ وجنوبها، بموارد معدنية وافرة، وهذا الأمر أرسى قاعدة صلبة لتطوير صناعات ثقيلة. فهذه المنطقة لا تمتلك احتياطيًّا كبيرًا من الحديد والفحم

فحسب، بل فيها أيضًا المواد الضرورية لصهر الحديد، ومخزون من المعادن الأخرى. ويوجد خام الحديد بشكل أساسي في آنشان، وبنشي، ولياويانغ. والفحم في فوشون وبنشي. وهذان المعدنان موجودان بالقرب من بعضهما بعضًا، وفي بعض الحالات في المكان نفسه.



حقل نفط داتشينغ، الذي تم تطويره منذ ١٩٦٠، يتكون من ٤٨ حقلا للنفط والغاز بأحجام مختلفة، ويغطي مساحة ٦٠٠٠ كم مربع تقريبا. في الصورة: إقليم نفط لاماديان في داتشينغ، بمقاطعة هيلونغجيانغ.

وفي مطلع القرن العشرين، بلغت عمليات استخراج خام الحديد وصناعاته مستوى عاليًا في الأجزاء الوسطى والجنوبية من مقاطعة لياونينغ، وهذا الأمر ساهم في تطور صناعة الآلات والمكائن. وفي خمسينيات القرن المنصرم، كثفت الحكومة جهودها لإنشاء منطقة الصناعات الثقيلة هذه، وبناء مؤسسات الحديد والصلب في آنشان وبنشي وتوسيعها، فبنت سلسلة من المنشآت كبيرة الحجم في هذا المجال، وخصوصًا في الصناعات الثقيلة، وهذا ما ساعد القاعدة الصناعية القديمة هناك على النهوض واحتلال مكانة متقدمة بوصفها أكبر قاعدة للصناعة الثقيلة في البلاد. وما تزال الصناعات الثقيلة علامة بارزة في جزء كبير من مناطق شمال شرق الصين حتى اليوم، إلا أنَّ لياونينغ تتبوَّأ المركز الأول بين جميع المقاطعات في البلاد في نسبة الصناعات الثقيلة.

وتشمل الصناعات الثقيلة في مناطق شمال شرق الصين كلًّا من التعدين، والآلات، والأدوات الثقيلة، وتصنيع معدات محطات الكهرباء كبيرة الحجم ومكائنها. ويحتل استخراج الفحم والنفط والبتروكيماويات وصناعات السيارات، مكانة حيوية في البلاد أيضًا. وتقوم مجموعتا آنشان وبنشي للحديد والصلب المعروفتين باسم «قاعدة آنشان - بنشي للحديد والصلب» بتزويد مناطق الصين الأخرى باحتياجاتها من هذين المعدنين.

ويتمتع سهل شمال شرق الصين باحتياطيات وافرة من النفط والغاز الطبيعي. ففي أواخر الخمسينيات، اكتشف النفط في سهل سونغنن بمقاطعة هيلونغجيانغ، وطُوِّر لاحقًا ليصبح حقل نفط داتشينغ. وساعد ذلك البلاد على تحقيق الاكتفاء الذاتي من الاحتياجات النفطية لنحو عقدين من الزمان ابتداءً من عام ١٩٦٣م. ويبقى حقل داتشينغ النفطي، أكبر حقل في الصين، بمعدل إنتاج سنوي يبلغ أكثر من ٥٠ مليون طن. وإضافةً إلى حقلي لياوخه وجيلين اللذين طُوِّرا لاحقًا، يمثل إنتاج حقول النفط تلك في مناطق الشمال الشرقي، ثلث إلى نصف إجمالي الإنتاج الوطني.

وتعدُّ شركة تشانغتشون لصناعات السيارات (اسمها الحالي هو مؤسسة مجموعة فاو FAW الصينية) أول مصنع للسيارات في الصين.

وبعد سنوات من التطوير، أصبحت Faw أكبر قاعدة لبحوث السيارات وإنتاجها في الصين، وأحدثها وأشملها. وتمتلك Faw أصولًا ثابتة تبلغ قيمتها أكثر من ٥٠ مليار يوان، ويتركز إنتاجها في سيارات الركاب والشاحنات مختلفة الأنواع، التي تبلغ أنواعها أكثر من ٥٥٠ نوعًا ضمن ستة أصناف. وتؤدي سيارات الركاب والدراجات النارية والجرارات الزراعية دورًا مهمًّا في سوق السيارات الصيني.

ويقطن في شنيانغ؛ حاضرة مقاطعة لياونينغ، أكثر من ٥ ملايين مواطن. ولقد كانت هذه المدينة عاصمة ثانوية خلال مدة رئاسة أسرة تشينغ التاريخية الصينية (١٦١٦م - ١٩١١م)، التي كانت آخر أسرة حكمت الصين. وما زال قصرها الإمبراطوري في قلب المدينة محفوظًا بشكل جيد. وتأتي المقبرة الإمبراطورية الشرقية التي تضم رفات الإمبراطور نور هاتشي، مؤسس أسرة تشينغ، والمقبرة الإمبراطورية الشمالية، حيث دُفِن الإمبراطور هوانغ تاي جي ضمن المواقع التاريخية المهمة في المدينة.

وتجاوزت شنيانغ كلًّا من مدينتي آنشان وبنشي اللتين تنتجان الحديد والصلب، وبالقرب منها أيضًا مدينة فوشون المنتجة للفحم. وإلى الجنوب منها تأتي مدينة داليان الساحلية التي ترتبط بشنيانغ عبر خطوط سكك حديدية، وشبكة مواصلات برية سريعة. وفي شنيانغ موارد وافرة ومنتجات كثيرة كما أسلفنا، وهي محور مواصلات حيوي، وكلُّ هذه العوامل ساعدتها على أن تتطور إلى مركز للصناعات الثقيلة.

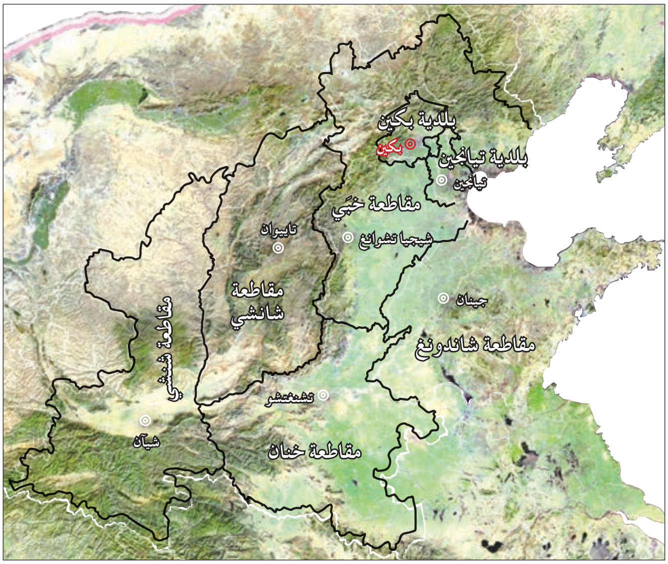
وهي تمثِّل الآن أكبر قاعدة صناعية في الصين لإنتاج المعدات والآلات، ومركزًا مهمًّا ورئيسًا لإنتاج آلات النفخ والضخ والمحولات كبيرة الحجم.

أما مدينة داليان الواقعة أقصى جنوب شبه جزيرة لياودونغ، فهي نقطة البداية الجنوبية لخط سكك حديد شنيانغ - داليان والطريق البري السريع الذي يربط بينهما أيضًا. وبفضل موقعها الجغرافي المميّز وسهولة مواصلاتها، تتميز حاليًّا بكونها مدينة الاستيراد والتصدير لمناطق شمال شرق الصين. وجرى بناء محطة للنفط الخام في ميناء داليان للمياه العميقة وغير المتجمدة على مدار السنة في خليج نيانيوي. وقد أسهمت هذه المحطة كثيرًا في تحسين جودة الأعمال وزيادة كمية الشحن والتفريغ في الميناء، من خلال الربط

المباشر بأنابيب حقول نفط داتشينغ. وفي داليان ٣٠ مرفأً لبواخر تبلغ حمولتها ١٠ آلاف طن، وبإمكان أعمق هذه المرافئ استقبال سفن أكبر ذات حمولة تراوح بين ٥٠ إلى ١٠٠ ألف طن. وتشكل داليان أيضاً أكبر ميناء بحري شامل في الصين بعد شانغهاي، وتحتل مكانًا مهمًا في شحن البضائع وتفريغها بعد ميناءَي شانغهاي وتشنهوانغ داو.

شمال الصين

تضمُّ منطقة شمال الصين كلًّا من مقاطعات خبَيّ، وشاندونغ، وخنان، وشنشي، وشانشي، إضافةً إلى بلديتي بكين وتيانجين. تقع هذه المنطقة حول المجريين الأوسط والأسفل للنهر الأصفر، وتمتد على هضبة التراب الأصفر(اللويس) غربًا، وسهل شمال الصين شرقًا. ويؤدي النهر الأصفر، الذي يعد مهد حضارة تاريخية عريقة وثيقة الترابط بالحضارة الصينية، دورًا حيويًّا في هذه المنطقة.



تاريخ عريق وتقاليد ثقافية

تقيَّدُ منطقة شمال الصين على أنها إحدى المناطق التي ولدت فيها الأمة الصينية وحضارتها. وأكدت الآثار التاريخية المُكتشفة في هذه المنطقة أنَّ إنسان بكين، الذي اكتشف في قرية تشوكوديان، وإنسان لانتيان، المكتشف في شنشي، هما أقدم إنسان ظهر على سطح الأرض. فقد عاشا قبل ما بين ٥٠٠ ألف – ٦٠٠ ألف سنة، و٨٠٠ ألف سنة مضت، وهما أسلاف الشعب الصيني الحالي. وقد سكن البشر مساحات واسعة من شمال الصين حتى في العصر الحجري الحديث، بين ٥٠٠ ألف – ٦٠٠ ألف سنة مضت. وأظهرت استكشافات أثرية أنَّ الإنسان القديم في الصين قد طوّر أساليب زراعية بدائية وأساليب مماثلة لتربية الدواجن. ويعد موقع بانبو، المكتشف في شيآن حاضرة شنشي، مثلًا نموذجيًا للعصر الحجري الحديث. ويمكن حتى الآن رؤية مقابر ومدافن أباطرة الصين، مثل مقبرة الإمبراطور هوانغ دي، المؤسس الأسطوري للأمة الصينية، الواقعة فوق جبل تشياوشان بمحافظة هوانغلينغ بمقاطعة شنشي.



سهل شمال الصين، منطقة طمي وغرين منبسطة تتشكل أساساً من النهر الأصفر ونهري هوايخه وهايخه. وهذا السهل من بين أول مناطق الصين التي شهدت تطوراً زراعياً.

ويمكن أيضًا إيجاد آثار ثلاثة أجيال من أباطرة الصين القدامى، مثل ياو وشون ويوي، الذين خلِفوا هوانغ دي، في المجاري السفلى لنهر فنخه. أما أسرة شيا (٢٠٧٠ – ١٦٠٠ ق.م)، وأسرة شانغ (١٦٠٠ –١٠٤٦ ق.م) اللتان طُبِّق فيهما النظام العبودي، فقد ظهرت نشاطاتهما الرئيسة في شمال الصين أيضًا. وأكدت أطلال أسرة ين المكتشفة في قرية شياوتون بآنيانغ بمقاطعة خنان، أنها كانت عاصمة البلاد في أواخر عهد أسرة شانغ، حيث دخلت الصين المجتمع العبودي، وطورت فنون صهر البرونز. كما أكد اكتشاف حروف ورموز من الكتابة الصينية كانت محفورة على عظام حيوانات، وجود أكثر من ٣٠٠٠ رمز طُوِّرت منذ تلك الفترة. وعلى أرض شمال الصين الغربي، وفي سهل ويخه تحديدًا (شنشي حاليًا)، تمكن الإمبراطور الطموح تشين شي هوانغ من تأسيس إمبراطورية تشين الموحدة (٢٢١ – ٢٠٦ ق.م). والذي جرى فتح مقبرته المكتشفة في شيآن، وتحديدًا الحفرتين الأولى والثانية، اللتين تضمان تماثيل الجنود والخيول الصلصالية التي تحرس مقبرته، ويُشار إليها على أنها الأعجوبة الثامنة من عجائب الدنيا.



كهوف لونغمن الصخرية في لويانغ، بمقاطعة خنان. بدأ حفرها قبل ١٥٠٠ سنة مضت، وتضم أكثر من ١٠٠ ألف تمثال.

وإبان عهد أسرة هان الغربية وأسرة تانغ (٦١٨م – ٩٠٧م)، وذلك خلال ذروة هيمنة المجتمع الإقطاعي في الصين، اختار كلٌّ من الأسرتين مدينة تشانغآن (شيآن حاليًّا) عاصمة تركتا فيها كثيرًا من الآثار التاريخية الرائعة. وفي المدة التي تلت ذلك، أصبح سهل الصين الشمالي أحد أكبر مناطق الصين من حيث النمو الاقتصادي، وبفضل ذلك احتضن عددًا من العواصم السياسية لعدد من الأسر التاريخية الحاكمة. وتفردت هذه المنطقة بخمس من سبع عواصم تاريخية صينية، وهي: شيآن، وبكين، وآنيانغ، ولويانغ، وكايفنغ، والثلاث الأخيرة في مقاطعة خنان. ومن بين هذه الخمس، تتميز شيآن بأنها وجهة سياحية ساخنة مشهورة بآثارها التاريخية، وتأتي في الأهمية السياحية والتاريخية بعد بكين.



جبل تايشان- تراث طبيعي وثقافي عالمي.

وعلى مستوى الثقافة، فالمتتبع للثقافة الصينية التقليدية ممتدة التاريخ، سيجد أنها تنبع من مصدرين، وهما: الكونفوشية التي وضعها كونفوشيوس، والطاوية التي أسسها لاو تسي. ومن المعروف أنَّ كونفوشيوس (٥٥١ - ٤٧٩ ق.م)، ولقبه تشيو، ويُعرف في تلك الفترة باسم «تشونغ ني»، هو مفكر وفيلسوف وسياسي ومعلم عظيم، أسس الأفكار المعروفة باسمه. وتشير السجلات التاريخية إلى أنَّ هذا الفيلسوف كان له ٣٠٠٠ تلميذ أو تابع، من بينهم ٧٠ تلميذًا تميزوا بالنبوغ والشهرة بعده. لقد تبدّت فلسفة كونفوشيوس في الآثار الكلاسيكية المعروفة باسم (الحوار)، و(مبدأ الوسطية)، و(رسالة العلم الكبير)، و(كتاب منشيوس)، التي جمعها تلامذته بعد وفاته. ولقد سافر الفيلسوف العظيم كونفوشيوس، وتابعه الأكثر نبوغًا وفطنة منشيوس، لإلقاء المحاضرات في بلدة تسوشيان في تشيويفو بشاندونغ. وأصبحت فلسفتهما، المعروفة أيضا بـ«مبادئ كونفوشيوس ومنشيوس» جزءًا من الثقافة التقليدية الصينية بعد أن جُمعت من قبل الكتَّاب المثقفين وجرى تطبيقها ومراعاتها من قبل الحكام على مدى أزمنة طويلة. لقد أثرت بوضوح في التقاليد والثقافة الصينيتين، وكذلك في عموم الشرق.

ويعدُّ كونفوشيوس واحدًا من «أبرز عشرة مفكرين عالميين قدامى». أما لاو تسي، فكان من المفكرين العظماء خلال فترتي الربيع والخريف. الاسم الحقيقي لهذا المفكر الذي أسس الطاوية، هو «لي أر»، وكان تلامذته يدعونه بـ«لاو دان» وتعني (دان الكبير أو المعلم دان). قيل إنه عمل بمنصب مسؤول حكومي يشرف على جمع الكتب وتصنيفها، لكنه استقال واختار الحياة العادية. قام خلال مدة شبابه بنشاطات أكاديمية في لويانغ، عاصمة أسرة تشو، وكتب نصوصًا فلسفية مهمة اسمها ((داو دي جينغ)). لقد وُلد هذان المفكران،

كونفوشيوس ولاو تسي، في شمال الصين وترعرعا فيها، حيث تركا تأثيرهما البالغ في الثقافة الصينية، لأكثر من ٢٠٠٠ عام، ويمكن القول إنَّ تأثيرهما يمتد حتى يومنا هذا.

وأصبح معبد كونفوشيوس، المحفوظ جيدًا، في تشيويفو، مقصدًا سياحيًّا مهمًّا، حيث يزوره الناس ليعبّروا عن احترامهم لفيلسوف الأجيال ومعلمها.

وكذلك أضحت مقبرة أسرته ومقر عائلته، إضافة إلى معبده، مقصدًا ومزارًا سياحيًّا يعرف بـ«الثلاثة كونغ» نسبة إلى اسم عائلته. وفي الجزء الجنوبي لبلدة تسوشيان، يقع هناك مبنى مقبرة عائلة منغ، ومعبد منشيوس ومقبرته، التي برغم صغر حجمها، إلا أنها تتميز بتخطيط مشابه لـ«الثلاثة كونغ»، ويحظى هذان الأثران التاريخيان باهتمام بالغ من قبل حكام الصين ومثقفيها، وذلك لأنهما «مسقط رأس كونفوشيوس ومنشيوس»، و«مهد حضارة عظيمة». وما يزال هذان الأثران التاريخيان يمثلان تراثًا عظيمًا قيّمًا تسبب في إعادة بنائهما عدة مرات.

وجبل تايشان الشامخ، شمال تشيويفو، هو الآخر يقع في سهل الصين الشمالي. وهناك قول صيني مشهور مفاده: «عندما ينظر المرء من قمة جبل تايشان، سيبدو العالم تحته صغيرًا فجأة». وجبل تايشان هو الأشهر بين الخمسة جبال المشهورة في الصين باسم «يويه الخمسة»، وتتسنّمُ أعلى قمة عليه، وهي يويخوانغدينغ، التي تشمخ لارتفاع ١٥٤٥ مترًا عن مستوى سطح البحر، وعلى سفحه يوجد معبد داي، وهو من أكبر المعابد في الصين، ويضم عددًا من ألواح النقوش المشهورة. وعلى كلا ممريه الجانبيين الصاعدين للقمة، يوجد كثير من النقوش التاريخية ذات القيمة الأثرية المهمة.

هضبة التراب الأصفر (اللويس)

من الناحية الطوبوغرافية، يتكون شمال الصين أساسًا من سهل شمال الصين في الشرق ومن هضبة التراب الأصفر(اللويس) في الغرب.

تنفصل هذه الهضبة، عن السهل بسلسلة من الجبال، مثل جبل تايهانغ، ومناطق الدرجتين الأولى والثانية من سُلَّم التضاريس في الصين. فسهل شمال الصين، الذي يجسد أولى المناطق المنحدرة، يرتبط طوبوغرافيًا بشكل وثيق بهذه الهضبة، وقد تَشكّل أساسًا منها. والتراب الأصفر الذي يغطي الهضبة، غني بالمواد المهمة، ويحمل النهر الأصفر والأنهار الكبيرة الأخرى التراب الأصفر إلى السهول. ويظهر هذا أنَّ هضبة اللويس مهمة جدًا لتطور سهل شمال الصين.



مساكن الكهوف سِمة معمارية تقليدية خاصة على هضبة اللويس.

وتتميز هضبة اللويس بحجمها الفريد البالغ (أكثر من ٣٠٠ ألف كم٢) وسُمك ترابها الذي يصل في أعلاه إلى ما بين ١٠٠ - ٢٠٠ متر. وبسبب التركيبة اللينة، واللونين الأسمر والأصفر، وعوامل التعرية الناجمة عن الرياح

والأمطار لعقود طويلة، تبرز الهضبة في شكل تضاريس لا مثيل لها في أي مكان في العالم. وتشمل التضاريس الأراضي المُسطّحة والحافات والتلال، وتمثّل الأراضي المسطحة السِمة الغالبة على الهضبة، ولأنَّ هذه المسطحات تحتوي على كثافة عالية لتوزيع القرى، فمن الصعب حاليًا تحديد مواقع تمدد هذه المسطحات على الهضبة. وتقع حافة الهضبة بين واديين، ويمكن لها أن تتطور إلى تلال هضبية منفصلة إذا استمرت في الانفصال أكثر. لذلك، يطلق على شكل تضاريسها تسمية «عالم الطبيعة الذي يشكله إله الرياح المجنون». وهناك كثير من التحليلات والآراء حول نشأة هذه الهضبة، ولكن أكثرها شيوعًا هو الرأي القائل بأنها تكونت بفعل تطاير الرمال من صحاري آسيا الوسطى، وتراكمها في هذه المنطقة على مدى آلاف السنين.



منظر طبيعي على هضبة اللويس يتميز بالأخاديد المتقاطعة.

وقبل البدء بتدوين التاريخ، كانت هذه المنطقة ذات غابات خضراء كثيفة فوق التلال، وعلى مناطق صغيرة أقل ارتفاعًا تتكاثر الأشجار. لكن نشاطات بشرية مستمرة لآلاف السنين قد دمرت تلك المساحات والغابات الخضراء،

وأسهمت الرياح العاتية والأمطار في تكثيف التآكل والتصحّر في المنطقة التي شهدت تكاثر الأودية بمختلف الأحجام. والتي إذا نظرنا إليها من الجو، فسترتسم هذه الوديان مثل فروع شجرة كبيرة، بشكل نادر جدًّا.

وتحتوي تربة هضبة اللويس كثيرًا من كربونات الكالسيوم. وهي في الحقيقة صلبة، لكنها تتحول إلى طين هش خلال موسم المطر، وتسير مع مياه الأمطار. ولهذا السبب تشهد تربة الهضبة أخطر تسرب أو فقدان للمياه في الصين. وتحمل مياه الأمطار كمية كبيرة معها من التراب الأصفر والرمل إلى البحر الأصفر، جاعلة إياه أعلى الأنهار من ناحية تركيز الطين والرمل في العالم.

ويحمل النهر الأصفر ما معدله ١,٦ مليار طن من الطمي والغرين إلى مجاريه السفلى كل سنة.

وإلى جانب النهر الأصفر، تجري على هذه الهضبة روافد مختلفة الأحجام، مثل ويخه، وجينغخه، وفنخه، وسوشوي، ويانخه. والوديان التي يجري فيها نهرا فنخه و ويخه، ملائمة لزراعة القمح والقطن، وهي من أكثر المناطق حيوية ورواءً على الهضبة.

النهر الأصفر

هذا النهر ثاني أطول أنهار الصين، وينبع من حوض يوقوزونغلي في الجزء الشمالي من جبل بايانكالا بمقاطعة تشينغهاي. ويجري شرقًا لمسافة ٥٤٦٠ كم عبر تشينغهاي، وسيتشوان، وتشونغتشينغ، وقانسو، ونينغشيا، ومنغوليا الداخلية، وشنشي، وشانشي، وخنان، وشاندونغ، قبل أن يصب في بحر بوهاي بمحافظة كينلي بشاندونغ. وفروعه هي هوانغشوي، وتاوخه، وجينغخه، وويخه، ولوخه، وفنخه، وييخه، وتشينخه. ويحمل مياهًا بمعدل سنوي يصل إلى ٤٨

مليار متر مكعب. والأراضي التي يمر بها النهر الأصفر تتميز بمساحات خصبة واسعة ومراعٍ طبيعية كثيرة المياه والأعشاب، وغنية بالموارد ورائعة المناظر، ومملوءة بمخزونات المعادن المتنوعة. ويوفر حوض النهر الأصفر والمنطقة على طول مجاريه السفلى أكثر من ٢٠ مليون هكتار من الأراضي الزراعية، ويقطنها نحو ١١٠ ملايين نسمة.



النهر الأصفر يجري متعرجاً في مروج خضراء بمقاطعة سيتشوان.

والنهر الأصفر عمومًا ينقسم إلى ثلاثة أقسام: المجاري العليا، وتبدأ من منبعه إلى توكيتو بمنغوليا الداخلية. ومجاريه الوسطى من توكيتو إلى منغجين بمقاطعة خنان، ثم المجاري السفلى من منغجين إلى مصبه في البحر. ويمتاز النهر الأصفر خلال جريانه في أعاليه بهضبة تشينغهاي - التبت بالتدفق المستقر وقلة الرمال في مياهه. ويجري جزؤه الأوسط على هضبة اللويس، إذ تزداد محتوياته من الطين والرمال بشكل كبير جدًا، جاعلة إياه «النهر الأصفر»

فعلًا. وتمثل هذه حالة نادرة، لأنَّ كل كيلومتر مكعب من مياهه يصبح حاملًا نحو ٣٧,٦ كغم من الرمل.

ويغيّر النهر الأصفر سرعته فجأة، خلال جريانه نحو سهل الصين الشمالي، ويتباطأ بصورة تمنح فرصة لكثير من الرمال بالهبوط والاستقرار في قاعه المرتفع بوضوح في هذه المنطقة. وهذا ما دفع كثيرًا من الخبراء إلى تسميته في مجاريه السفلى بـ«النهر المعلق»، إذ يرتفع قاعه بنحو ١٠ سنتمترات سنويًا. ونتيجة لذلك، فإنَّ من الطبيعي أن يغيِّر النهر الأصفر سرعته ومساره في هذه المنطقة، وذلك بفعل احتضان قاعه لكثيرٍ من الطمي والرمل، ويكون النهر أعلى من ضفافه في كثير من الأماكن عند مجاريه السفلى. وتظهر معطيات جُمِعت على مدى ٢٥٠٠ سنة أنَّ النهر الأصفر قد كسر ضفافه وفاض لأكثر من ١٥٠٠ مرة، وغير مساره بشكل كبير ٢٦ مرة، مُحدِثًا أثرًا كبيرًا في تيانجين في الشمال وعلى المنطقة المحاذية لنهر هويخه في الجنوب. ويمكن ملاحظة آثار مجاريه وتغيّراته من كل مكان على سهل الصين الشمالي.



شلال هوكو على المجاري الوسطى للنهر الأصفر، حيث تهبط المياه العارمة من ارتفاع نحو ٣٠ متراً فجأة، مشكلة شلالاً هادراً عجيب المنظر.

وتشير أحداث تاريخية إلى أنَّ هذا النهر سبّب مآسيَ كثيرة في مناطق مجاريه السفلى، وهذا الأمر دفع البعض لوصف ذلك بالقول إما: «فيضانات عارمة تنشر الموت والدمار في كل مكان»، أو «جثث هالكة تملأ الأرض القاحلة». هذان القولان ربما يمثلان صورة واضحة لما سبَّبه هذا النهر من مصائب للناس، ولا عجب في أن يدعوه البعض بـ«نهر الأحزان في الصين».

وبرغم مآسي الماضي، فإنَّ هذا النهر يبقى عظيمًا، فقد روت مياهه عدة أجيال، ومهدت لظهور حضارة رائعة سُمِّيت باسمه (حضارة النهر الأصفر)، وهي من أقدم الحضارات في العالم.

وقد نمت هذه الحضارة وترعرعت وأثمرت وأينعت وتوسعت على مدى آلاف السنين.

ودخل النهر الأصفر مرحلة جديدة بعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية، وساهم في الاستقرار الاجتماعي والنمو الاقتصادي في تهيئة الطريق لتنظيم النهر ومنع الفيضانات. وأنفقت الحكومة الصينية أموالًا هائلة لتعزيز ضفاف النهر على امتداد ١٠٠٠ لي (لي واحد يساوي نصف كيلومتر)، وتحويل المياه الزائدة إلى أراض منخفضة. وحققت الجهود طويلة الأمد لحفظ المياه والتربة في مجاري النهر الوسطى، نتائج جيدة، وبُنِيت أيضًا جملة من محطات الطاقة الهيدروليكية، وخصوصًا على المجاري الوسطى والعليا، إذ تسمح الظروف بذلك. وتقوم هذه المشروعات بدور كبير في خزن مياه الفيضانات في المجاري السفلى للنهر وتنظيمها، وتوليد طاقة كهربائية، وتوفير مياه للري وللشرب أيضًا. ومؤخرًا، وصل النهر الأصفر إلى أعلى منسوب، وذلك بسبب الأمطار الغزيرة وذوبان الجليد بكثرة خلال العقود الخمسة الماضية. وبرغم ذلك، لم يحدث أي فيضان خطير أو تغير كبير في خط جريانه.

إنَّ الإمكانيات المخزونة لتوليد الطاقة من مياه هذا النهر عظيمة. إذ توفر مجاريه العليا والوسطى البالغ طولها أكثر من ٤٦٠٠ كم فرصة سانحة وكبيرة لمشروعات توليد الطاقة الهيدروليكية.

على سبيل المثال، فإنَّ مجراه البالغ طوله أكثر من ١٠٠٠ كم، ويمتد من مضيق لونغيانغ في تشينغهاي إلى مضيق تشينغتونغ بمنطقة نينغشيا ذاتية الحكم لقومية هوي، يسيطر على أكثر من ثلث حجم مياهه، وله قدرة على توفير ١٣ مليون كيلوواط من الطاقة الهيدروليكية. وهذا أكثر من نصف إجمالي الطاقة المولدة من مياهه، وهذا ما يجعل المجرى تحديدًا مثاليًا للتطوير في منطقة منحدرة.

أما مجراه الممتد من مضيق لونغيانغ إلى لانغتشو بمقاطعة قانسو فله إمكانيات أكبر.

إنَّ لكلٍّ من محطتي توليد الطاقة الهيدروليكية في مضيقي لونغيانغ وليوجيا، سدًّا يرتفع لنحو ١٠٠ متر، وإمكانية خزن مياه تصل لنحو ٢٦,٨ مليار متر مكعب و ٥,٧ مليارات متر مكعب من المياه على التوالي. وهناك محطات طاقة مماثلة أخرى، مثل التي على مضيق اباان ويانقوه، بُنِيت على النهر الأصفر، ولها قدرة توليد طاقة مجتمعة تصل ٣,١ مليون كيلوواط.

وهناك منشآت طاقة أخرى عظيمة ذات نطاق واسع، بُنيت على مجرى النهر بعد خروجه من لانتشو، وهي على مضيق تشينغتونغ، وفي ساشنغقونغ، وتيانتشياو، وعلى مضيق سانمن. لقد بُني مجمع الطاقة على مضيق سانمن قرب مدينة سانمنشيا بمقاطعة خنان عام ١٩٥٧م، وهو أول مشروع مائي واسع النطاق على المجرى الرئيس للنهر الأصفر. لقد ساعد هذا المشروع على

تنظيم مياه النهر الزائدة، وقلَّل من التهديدات المحتملة على مناطق المجاري السفلى للنهر. لكن خزان هذا المشروع يتعين تنظيفه وتجديده دائمًا؛ بسبب تقديرات خاطئة تؤدي إلى تراكم كبير للرمال فيه. ويسهم مجمع سانمن للطاقة الهيدروليكية في توليد الكهرباء والتخلُّص من المياه الفائضة والطمي، ويضمن استخدام الخزان لمددٍ طويلة. إنَّ لهذا المشروع دروسًا مستفادة مكّنت المهندسين من اتخاذ المزيد من الاحتياطات قبل بناء مشروعٍ مائيٍّ كبيرِ الحجمِ على نهرٍ كثير الرمل والطين.

ومن أجل ترويض النهر الأصفر بصورة أفضل، بدأت عام ١٩٩٤م خطة لبناء خزان سعته ٥ مليارات متر مكعب من المياه. واكتمل هذا المشروع الواقع في شياولانغدي بمقاطعة خنان، مما عزّز قدرة الوقاية من الفيضانات. لقد ساعد هذا المشروع إلى جانب مشروع مجمع سانمن سالف الذكر، في ترسيخ إجراءات السيطرة على الفيضان على المجاري الوسطى والسفلى للنهر.

ونتيجةً لذلك، فقد نجح المهندسون في تقليل احتمال الفيضان في المناطق المذكورة من مرة في كل ستين سنة إلى مرة في كل ألف سنة. وهذا ما يمنح مخططي المشروعات مزيدًا من الوقت لإحكام الإجراءات الكفيلة بضبط مسار النهر ومستوياته في مجاريه السفلى، وتهيئة ظروف أفضل لحفظ المياه والتربة على هضبة التراب الأصفر(اللويس).

أكبر قاعدة للطاقة في الصين

تحتضن منطقة شمال الصين أكبر قاعدة للطاقة في البلاد، ومعها احتياطيات هائلة من الموارد، مثل الفحم والنفط والغاز الطبيعي. فهضبة

التراب الأصفر توفر كمية كبيرة من الفحم، إذ يُنتج في معظم مناطق مقاطعة شانشي. ويوجد في مقاطعة شنشي أيضًا احتياطي كبير من هذه المادة. وتمثل هضبة اللويس، ومعها مناجم فحم جونغر، ودونغشنغ بمنغوليا الداخلية، قاعدة الطاقة للصين خلال القرن الحادي والعشرين.



منجم فحم أنتايباو المفتوح في بينغشوه بمقاطعة شانشي.

تحمل مقاطعة شانشي لقب «موطن الفحم»، إذ تمتد مناطق إنتاج الفحم فيها على مساحة ٦٠ ألف كم٢، أو ثلث إجمالي مساحة المقاطعة. وتتركز في داتونغ، ونينغوو، وشيشان، وخشيان، وتشينشوي، وهدونغ. وتتوفر في المقاطعة أصناف الفحم كافة، وخصوصًا ما كانت جودتها مميزة، وتشكل ثلث كمية الإنتاج الوطني. ويصل الاحتياطي المحدد في المقاطعة لأكثر من ٢٠٠ مليار طن. ويتميز فحم هذه المقاطعة بقلة التراب والكبريت والفوسفور، وله قيمة حرارية عالية. وبفضل وقوع الفحم على عمق معقول وسهل الاستخراج، أصبحت مقاطعة شانشي أكبر قاعدة للفحم في الصين. وينتج منجم فحم داتونغ شمال شانشي، فحم البخار بشكل رئيس، الذي يشتعل ليولد درجات حرارة عالية جدًّا، مُخلّفًا قدرًا يسيرًا من الرماد والتراب. لذلك يعد ثمينًا جدًّا،

ويتمتع بسمعة طيِّبة في العالم. إنَّ فحم شانشي لا يُنقل إلى المناطق الأخرى في الصين فحسب، بل يُباع أيضًا إلى دول أجنبية. وفي هذه المقاطعة أيضًا يوجد أكبر منجم لفحم الأنثراسيت الممتاز في البلاد، وهو منجم فحم يانغتشيوان.



حقل نفط شنغلي في مقاطعة شاندونغ.

وتُجسّد منطقة تونغتشوان المنطقة الرئيسة لإنتاج الفحم في شنشي. وخلال العقدين الماضيين أو أكثر، اكتشفت الصين كمية كبيرة من احتياطي الفحم في منجم شنفو (شنمو- فوقو)، والغاز الطبيعي في حقل يانآن شمالي المقاطعة. إنَّ احتياطي الفحم في شنفو يتجاوز إجمالي الاحتياطي المحُدَّد في شنشي. ويمكن أن يتصدر منجم الفحم هذا المستوى الأول في العالم إذا جُمع مع منجم آخر في منغوليا الداخلية شمالًا. ومما لا شك فيه أنَّ تطوير منجم فحم شنفو سيؤدي دورًا حاسمًا في تلبية احتياجات الصين من الطاقة.

لقد طوَّرت الصين الطرق العامة، ونمّت السكك الحديدية التي تمكِّن شانشي من نقل الفحم إلى المناطق الأخرى بصورة نشطة. وإلى جانب خطوط سكك الحديد من بكين إلى باوتو، وخط حديد تايوان- شيجياتشوانغ، شهدت

العقود الثلاثة الماضية إنشاء خطوط بكين- يوانبينغ و تايوان- جياوتشوه. وهناك خط حديدي كهربائي يربط داتونغ مع تشينهوانغداو، ويتمتع بقدرة نقل سنوية تصل إلى مئة مليون طن. أما رصيف النقل الحديث للفحم في تشينهوانغداو، الذي يخدم خط سكك حديد داتونغ-تشينغهوانغداو، فبإمكانه نقل خام الفحم إلى المقاطعات الساحلية في جنوب الصين، وتصدير كميات أخرى لعدة مناطق في العالم. إضافةً إلى ذلك، هناك عدة «محطات طاقة جوفية» بُنيت في مناطق إنتاج الفحم، ويمكنها إمداد الكهرباء إلى بكين وتيانجين ومناطق أخرى.

إنَّ سهل شمال الصين يتمتع باحتياطات نفط كبيرة أيضًا. فهناك حقل نفط شنغلي في مقاطعة شاندونغ، وحقل نفط دونغبو على حدود مقاطعتي شاندونغ وخبي، وحقل نفط رنتشيو في وسط خبي، وكلها حقول نفط رئيسة على المستوى الوطني.

حزام المنطقة الاقتصادية بكين - تيانجين - تانغشان

يضم هذا الحزام الاقتصادي مدن بكين، وتيانجين، وجاراتهما مدن تانغشان، ولانغفانغ، وتشينغهوانغداو، ومدنًا أخرى في خبي. ويهيمن بوصفه أكبر منطقة اقتصادية في شمال الصين وأحدثها. لا تعد بكين العاصمة السياسية للصين فحسب، بل العاصمة الثقافية الكلاسيكية أيضًا.

وتقع بكين في الطرف الشمالي لسهل الصين الشمالي، على مسافة ١٥٠ كلم جنوب شرق بحر بوهاي. وتمتد على مساحة ١٦٨٠٠ كلم٢، ويقطنها نحو ١٢,٥٩ مليون نسمة.

وهي تحتضن تاريخًا يمتد لأكثر من ٣٠٠٠ سنة، وظلت لمدة طويلة مدينة

رئيسة في شمال الصين. لقد كانت عاصمة إقليمية خلال فترة أسرة لياو (٩٠٧م - ١١٢٥م) وهي الفترة التي شهدت نزاعات بين لياو وأسرة سونغ الشمالية (٩٦٠م - ١١٢٧م). ومنذ ذلك الحين ظلت مركزًا سياسيًّا للصين، وخصوصًا خلال أسر جين، ويوان، ومينغ، وتشينغ، ثم حُددت عاصمةً لجمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩م.



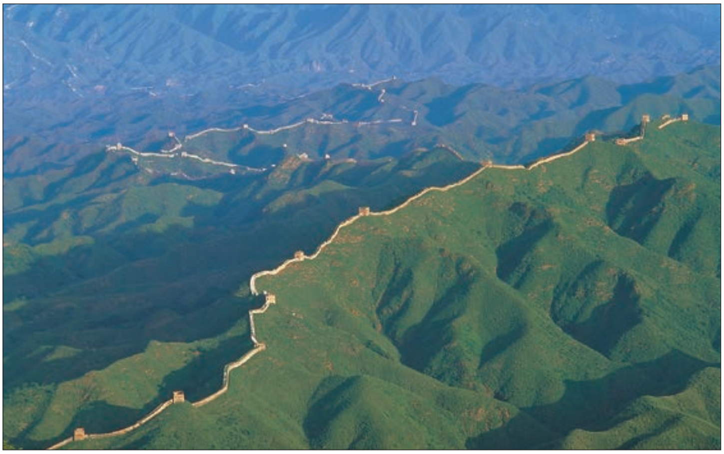
المدينة المحرمة في بكين، حافظت على خصائصها التقليدية وفخامتها الثقافية.

إنَّ بكين تتميز بخصائص العاصمة الشرقية القديمة، وفيها محور يمتد من الشمال إلى الجنوب. ويقع متحف القصر الإمبراطوري (المدينة المحُرّمة الأرجوانية)، الذي كان يحتضن قصور أباطرة أسرتي مينغ وتشينغ، في وسط المدينة، ويمتد المحور الشمالي - الجنوبي عبر بوابتَي المتحف الأمامية والخلفية، ويمر كذلك بقاعتيه الأمامية والخلفية. وكان عرش الإمبراطور في وسط قاعة الانسجام الأعظم، وهي أعظم قاعة في المدينة المحرمة، وتقع على المحور الشمالي الجنوبي. وهناك مجموعة بنايات شُيِّدت على جانبي المحور بطريقة مخططة ومنتظمة. ومعظم الشوارع والممرات المتقاطعة في بكين تمتد من الشمال إلى الجنوب أو من الشرق إلى الغرب، مُشكلةً هيكل

طرق حضريًا يشبه رقعة الشطرنج. ومثل هذا التخطيط المعماري، الذي يغلب عليه طابع القوة والعظمة الإمبراطورية، يندر وجوده في مكان آخر في العالم. وتحتفظ بكين، بوصفها عاصمة قديمة، بمجموعة واسعة من المباني والآثار التاريخية العريقة، وتحافظ عليها بشكل جيد. فالمدينة المحُرّمة، التي تضم أكبر مجموعة قصور في العالم وأروعها، بُنيت خلال فترة أسرتَي مينغ وتشينغ. أما بوابة تيان آن مَن (بوابة السلام السماوي) أمام متحف القصر الإمبراطوري، وهي البوابة الجنوبية الأصلية للمدينة الإمبراطورية، فشهدت عدة عديلات وإعادة ترميم، وهي رمز لبكين. وأمام بوابة تيان آن مَن، تمتد أكبر ساحة عامة في العالم، هي ساحة تيان آن مَن. وفي وسطها نصب أبطال الشعب، والقاعة التذكارية للزعيم الراحل ماو تسي تونغ. وعلى جانبي متحف القصر الإمبراطوري، حدائق تشونغشان (صون يات صن) وقصر الثقافة للطبقة العاملة، وفي خلفه حديقتَي جينشان وبيهاي، والتي تُكّون جميعًا مجموعة بنايات متكاملة. وإذا دخل المرء متحف القصر الإمبراطوري لن يسعه إلا أن يتأثر بعظمة البناء والمعمار الصيني التقليدي، ويستحضر بإجلال واعتزاز، ذلك التاريخ العظيم للأمة الصينية. وفي الضاحية الشمالية الغربية لبكين، يقع القصر الصيفي الذي يعد أكبر حديقة إمبراطورية في البلاد. وبالقرب منه أطلال حدائق يوانمينغيوان، وهما من أشهر المواقع السياحية في بكين والصين والعالم.

وإذا تحدثنا عن لهجة أهالي بكين، والمتميزة بوضوح اللفظ ونعومة الصوت، فقد أسفرت هذه اللهجة عن ولادة اللغة الصينية الفصحى. وتمثل بكين أيضًا مهد الأوبرا المعروفة باسمها أي أوبرا بكين، وهي الأشهر بين أوبرات الصين. وفي بكين أطباق وأكلات شهية متميزة، لا تحمل خصائص مناطق وسط

الصين فحسب، بل تجمع أيضًا خصائص نموذجية من قوميتَي مان ومنغوليا في المناطق الشمالية. وهناك طبقان مشهوران في بكين، وهما بط بكين المشوي، وشرائح لحم الغنم المقلية سريعة التحضير. وتتميز بكين أيضًا بالدور الرباعية التقليدية القديمة التي تتكون من باحة واسعة تحتضن في داخلها أربعة مساكن، وتتميز جميعها بتصميم فريد بديع. وفي خارجها، هناك الأزقة القديمة، التي تتسع حينًا وتضيق حينًا آخر، وما تزال مسكنًا لكثير من عائلات الناس العاديين. وفي بكين أشغال رائعة من الحرف اليدوية والمنتجات التقليدية، مثل نقوش وأشغال جينغتاي المطلية بالمينا الأزرق، واليشم المنقوش، والسجاد، وتتمتع هذه المنتجات التراثية التقليدية بسمعة طيبة وإقبال كبير في داخل الصين وخارجها.



سور الصين العظيم من زمن أسرة مينغ التاريخية الصينية، يمتد لمسافة أكثر من ٦٣٠٠ كم من الشرق إلى الغرب، حول جبال عالية وصحارٍ شاسعة ومروج خضراء.

إنَّ هذه المدينة التاريخية العريقة هي أيضًا مدينة حديثة، إضافةً إلى أنها أكبر مركز علمي وثقافي في الصين. ففيها أكبر مكتبة في البلاد، وهي (المكتبة الوطنية الصينية)، وأكبر المنشآت الرياضية والمستشفيات من الدرجة الأولى.

وهي أيضًا مركز الإعلام والنشر في الصين، ومقر لعشرات الفرق الفنية على المستوى الوطني. وفيها ١٢٠ متحفًا؛ لذلك تسمى بمدينة المتاحف. ويوجد في بكين نحو ١٠٠ جامعة متنوعة، وتسهم جامعتا بكين وتشينغهوا وجامعات أخرى في إعداد أكفّاء كُثُر، وتأهيلهم وتدريبهم، وهذا ما جعلها بيئة جاذبة لكثير من الطلاب الأجانب. وتحتضن بكين أيضًا مقرَّ عدد من الأكاديميات العلمية والبحثية الكبرى في الصين، مثل الأكاديمية الصينية للعلوم والأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية، ولهما أكثر من ١٠٠ فرع معظمها يقع في المدينة أيضًا. وفي بكين مجمع تشونغقوانتسون للتقنيات العالية الحديثة، والذي يمثّل موقعًا لالتقاء الكفاءات والتقنيات، ويجسّد دورًا كبيرًا وحاضنة مثالية لكثير من الكفاءات العلمية المتفوقة من جامعتي بكين وتشينغهوا، وللمنشآت البحثية التابعة للأكاديمية الصينية للعلوم. وشهد هذا المجمع المعروف بـ«وادي السيليكون الصيني» تطورًا وازدهارًا كبيرين للصناعات عالية التكنولوجيا منذ ثمانينيات القرن الماضي.

إلى جانب ذلك، تتمتع العاصمة الصينية بكين بأساس صناعي قوي جدًّا في قطاعات متنوعة منها الحديد، والصلب، والفحم، والمكائن، والبتروكيماويات، والإلكترونيات، والمنسوجات. وبدأت الحكومة عام ١٩٩٠م بتحويل صناعات، مثل الحديد والصلب والكيماويات والنسيج وصناعات تقليدية أخرى إلى صناعات ذات تكنولوجيا عالية مكثفة. من جانب آخر، تطورت في المدينة صناعات عالية التكنولوجيا تلائم الطبيعة الحديثة للعاصمة، مثل الاتصالات الإلكترونية والبصريات والدوائر الإلكترونية المتكاملة والميكانيكية والهندسة الحيوية، إضافة إلى الصناعات الدوائية الجديدة.

وتشكّل بكين أيضًا محورًا للخطوط الجوية والبرية السريعة والسكك

الحديدية في الصين. فهي ترتبط بمناطق البلاد الأخرى عبر شبكة متعددة من خطوط القطارات والطرق الحديثة والرحلات الجوية. وقد ساهم الطريق السريع بكين - تيانجين - تانغقو في تسهيل المواصلات بين بكين والمناطق الساحلية. وتطوّر مطار بكين الدولي ونما ليصبح أكبر مطار في الصين، ويشهد يوميًا عشرات الرحلات التي تربط العاصمة الصينية بجميع المدن الكبيرة في داخل البلاد وخارجها.

وبعد تبنِّي الصين لسياسة الإصلاح والانفتاح عام ١٩٧٨م، شهدت بكين تغيُّرات عظيمة. وتطورت بنيتها التحتية من خلال بناء شبكات الطرق والاتصالات، وحققت نتائج كبيرة في هذه المجالات. وشكلت الطرق الدائرية الأربع من الطريق الدائري الثاني إلى الخامس شبكة نقل متكاملة فيها عدد من التفرعات والملحقات والجسور المعلقة المجسمة. وتمتلك العاصمة الصينية شبكة اتصالات متطورة حديثة، وهذا ما جذب الاستثمارات الأجنبية إليها، كما تمتلك أعدادًا متزايدة من الحدائق والمساحات الخضراء والمباني العالية الحديثة، حتى قال الناس إنَّ بكين صارت «مرتفعة» و«جميلة».

وبعد أن حصلت المدينة على حقٍّ استضافة أولمبياد عام ٢٠٠٨م، سعت الدوائر المعنية في بكين، وما زالت إلى وضع خطط تطويرية طويلة الأمد لجعل بكين أكثر جمالًا وحداثة.

وتشهد بكين حركة عمرانية واسعة النطاق بفضل استضافتها مؤتمرات وندوات محلية وإقليمية وعالمية كبيرة. وأصبحت عدة اقتصادات منها على سبيل المثال: «الاقتصاد الأولمبي» محركًا قويًا وحافزًا عظيمًا لها وللمناطق الاقتصادية الأخرى القريبة منها، ولاسيما في بوهاي، للمضي قدمًا في مسيرتها التحديثية والتطويرية والتنموية.

أما مدينة تيانجين فتقع عند ملتقى الروافد الخمسة لنهر هايخه (وهي: يونغدينغ، وداتشينغ، وتسيا، ونانيون، وبييون)، وتعد منذ مدة طويلة مركزًا تجاريًا وميناءً دوليًا مهمًا. وهي واحدة من أربع بلديات مركزية، تُدار مباشرة من قبل الحكومة المركزية. يقطن مدينة تيانجين نحو ١٠ ملايين نسمة، وهي معروفة منذ القدم بأنها مدينة تجارية وصناعية، وأكبر ميناء تجاري في شمال الصين. وفيها قاعدة قوية متطورة لصناعات الحديد، والصلب، والمكائن، والكيماويات، والإلكترونيات، والمواد الغذائية، وصناعة الورق، والمطاط، وتتحلى الكيماويات البحرية وصناعة الغزل والنسج بمزايا خاصة.

ويعود تاريخ ميناء تيانجين إلى زمنٍ بعيد، وهو لا يخدم بكين فقط، بل عموم مناطق شمال الصين، ويقوم بتجارة الاستيراد والتصدير لبكين وشمال الصين وشمال الصين الغربي. وبفضل مساحته الواسعة ومنشآته الحديثة بإمكان هذا الميناء شحن أكثر من ٢٠٠ مليون طن من البضائع وتفريغها، ونحو ٥ ملايين حاوية معيارية كل سنة.



تيانجين إحدى أربع بلديات بالصين، خاضعة للإدارة المباشرة للحكومة المركزية وهي مشهورة بكونها مدينة تجارية وصناعية، وأكبر ميناء تجاري في شمال الصين.

وهناك منطقة تنمية اقتصادية تسمى تيانجين- بينهاي، على بعد ٤٠ كم من المدينة قبالة بحر بوهاي شرقًا. وقبل أن تطوِّرها الحكومة إلى نطاق اقتصادي عام ١٩٩٥م، كانت هذه المنطقة مجرد مستنقع قاحل، ولكنها طُوّرت إلى مستوى جذب كثيرًا من الشركات العالمية المشهورة لتأسيس مقرات فيها، وهذا ما حفز ظهور أربع صناعات أساسية هي الاتصالات الإلكترونية، والمواد الغذائية، والمكائن، والأدوية الحيوية، وجعل هذه المنطقة من أكثر مناطق الصين تحقيقًا للأرباح، وتؤكد كثير من مؤشراتها الاقتصادية أنها تحتل الصدارة في البلاد.

تقع تيانجين على بعد ١٢٠ كم شرق بكين، وترتبط بها بخط سكك حديدية سريع ومتطور، وطرق برية سريعة، وساعدت هذه الظروف على توثيق العلاقات الاقتصادية بين المدينتين، إلى جانب ذلك هناك مدينة لانغفانغ بمقاطعة خبي، تقع بين بكين وتيانجين وهناك أيضًا مدينتا تانغشان وتشينهوانغداو، اللتان تقعان في الشمال الشرقي من بكين وتيانجين، وترتبط هذه المدن الثلاث بشكل وثيق بمدينتَي بكين وتيانجين، والنتيجة هي ظهور منظومة اقتصادية ذات بنية تحتية متكاملة وقوة شاملة تكمل بعضها بعضًا. يتمثّل الإنتاج الرئيس لمدينة تانغشان في الفحم، وفيها منجم كايلوانغ الذي يعد الأقدم من نوعه في الصين. وشهدت صناعات هذه المدينة، وخصوصًا الحديد والصلب والمكائن والسيراميك، تطورًا ملحوظًا بفضل صناعة الفحم. أما تشينهوانغداو أكبر مدينة مينائية في الصين لتصدير الفحم، فهي المحطة النهائية لنقل الفحم على خط سكك حديد داتونغ - تشينهوانغداو، الذي يساعد في تصدير أكثر من ١٠٠ مليون طن من الفحم سنويًا. واكتشف حديثًا في داخل

حدود مدينة تانغشان، حقل نانباو النفطي حديثًا، والذي أسهم في زيادة احتياطي النفط الصيني، ويتمتع الحقل بمكانة عظيمة؛ لأنه يضمن تموين الدولة بنفطه وغازه الطبيعي.

أما منطقة بوهاي الاقتصادية، التي اقترح بناءها اقتصاديون صينيون، فقد أضافت شبه جزيرة لياودونغ على الجانب الشمالي الشرقي لبحر بوهاي، وشبه جزيرة شاندونغ في الجنوب، إلى منطقة التنمية الاقتصادية بكين - تيانجين - تانغشان. وكان لهذه المنطقة الاقتصادية أثرٌ فعّالٌ على مقاطعات، مثل شنشي، ومناطق ذاتية الحكم، مثل منغوليا الداخلية أيضًا. وبعد كل من دلتا نهر اليانغتسي ودلتا نهر اللؤلؤ، شهدت منطقة بوهاي الاقتصادية أسرع خطوات للنمو، ومن المتوقع أن تنمو وتتطور لتصبح حزامًا اقتصاديًّا ذا تأثير عظيم في المناطق الساحلية شرقي الصين، وفي عموم شمال شرق آسيا خلال السنوات العشر المقبلة.

إنَّ منطقة بوهاي الاقتصادية هي أكبر قاعدة تصنيع في المناطق الساحلية الشمالية للبلاد، مع أنَّ مساحتها أصغر من منطقتَي دلتا نهر اليانغتسي ودلتا نهر اللؤلؤ، إلا أنها تتمتع بموارد طبيعية غنية ومجموعة كبيرة من الكفاءات رفيعة المستوى، وهي مزايا لا تجاريها فيها منطقتا الدلتا المذكورتان أعلاه. ولمنطقة بوهاي الاقتصادية نقطة تفوق ملموسة في الموارد مثل الحديد والصلب، والنفط الخام والملح، وشهدت تطورًا سريعًا في مجال الصناعات عالية التكنولوجيا، مثل تكنولوجيا المعلومات الإلكترونية والأدوية الحيوية والمواد الجديدة.

المناطق الواقعة على المجريين الأوسط والأسفل لنهر اليانغتسي

تقع مقاطعات جيانغتسو وتشجيانغ، وآنهوي، وجيانغشي، وهونان، وهوبي، وبلدية شانغهاي، على المجريين الأوسط والأسفل لنهر اليانغتسي، وتتميز بمناظر طبيعية وأراضٍ مختلفة عن مناطق شمال شرق وشمال الصين.

مناظر ضفاف الأنهار

هناك خط جغرافي يُعرف بـ«جبل تشينلينغ - نهر هوايخه»، يمتد في الجزء الشرقي للصين. وتتميز المنطقة الواقعة جنوب هذا الخط بتسجيل معدلات أرقام قياسية لتساقط الأمطار تصل لأكثر من ٨٠٠ ملم سنويًا. وتشهد درجات حرارة أعلى من المناطق الشمالية، وأنهارًا لا تتجمد في الشتاء. وإذا ركب المرء قطارًا من بكين إلى شانغهاي، فسيرى من النافذة كثيرًا من حقول الأرز بعد أن يصل نهر هوايخه. وتنتشر أمامه كثير من الأنهار الواسعة والبحيرات، ومناظر طبيعية رائعة للبلدات المائية. وتحتضن هذه المنطقة أيضًا أكبر خمس بحيرات للمياه العذبة في الصين، وهي: بويانغ، ودونغتينغ، وتايخو، وهونغتسه، وتشاوهو.



تتميز القرى أو البلدات المائية جنوب اليانغتسي بأراضيها المنبسطة الخصبة، وأنهارها المتقاطعة.

إنَّ من المألوف رؤية كثير من الأراضي السهلية المنخفضة الخصبة، وحول البحيرات العذبة الخمس المذكورة أعلاه، وكلُّها تقع على أقل من ٥٠ مترًا فوق مستوى سطح البحر. هذه المناطق السهلية كثيفة السكان، المتميزة بأمطار وفيرة ومعدل استغلال عالٍ للأرض، هي مصادر مهمة للحبوب في مناطق جنوبي الصين. وتتمتع دلتا نهر اليانغتسي المنبسطة، وسهل بحيرة تايخو بأروع مناظر ضفاف الأنهار، إذ تتقاطع الجداول، وتنتشر البحيرات، وتنبسط المساحات الممتدة لحقول الأرز، وبِرك المياه لتربية الأسماك، وبساتين التوت وبساتين أشجار البامبو، ومساكن الفلاحين.



مشهد من سوتشو، حيث المياه تحتضن البيوت من كل جانب، والسكان يتنقلون بالقوارب.

ويتّضح أن المياه تمثّل طريقة حياة بالنسبة إلى سكان المنطقة الجنوبية، فهم يجيدون استغلالها، ويستفيدون من كثرة مصادرها في تطوير أنظمة ري حقول الأرز، وتطوير حقول اللوتس وتنميتها، وتربية الأسماك والجمبري في برك وبحيرات.

وتشكّل الأنهار المتشعبة طرق مواصلات حيوية، فالناس هناك يستخدمون الأنهار والبحيرات لتسويق محاصيلهم، كالحبوب والزيوت والقطن والشرانق، لبيعها في الأسواق، وشراء ما يحتاجونه أيضًا.

لقد أسهمت موارد المياه الوفيرة بجعل البيئة الحضرية في الجنوب أكثر جمالًا. وهناك مثل صيني مأثور يقول: «في السماء جنة، وعلى الأرض سوتشو وهانغتشو». فالصينيون يرون سوتشو بمقاطعة جيانغتسو، وهانغتشو بمقاطعة تشجيانغ جميلتين كالفردوس. وفي الواقع هناك أيضًا عدد من المدن الأخرى في منطقة جنوب اليانغتسي، مثل ووشي في جيانغتسو، وشاوشينغ في تشجيانغ، تتمتع بمناظر رائعة مثالية للبلدات المائية.

ويعود تاريخ مدينة سوتشو إلى ما قبل ٢٥٠٠ سنة، أي إلى زمن ممالك الربيع والخريف التاريخية الصينية، إذ بُنيت هذه المدينة بوصفها جزءًا من مملكة وو. ولهذه المدينة خصائص مميزة، منها على سبيل المثال وجود الشوارع أمام البيوت، وفي الخلف هناك الجداول والغدران. وفي المدينة، كثير من الجسور التي تربط الشوارع بعضها ببعض، وعددها بالمئات، وتختلف بالأشكال والأحجام والألوان، لذلك يُطلق على سوتشو لقب «بندقية الشرق». لقد كان الناس يأخذون ما يحتاجونه من مياه القنوات والجداول، بمجرد فتح أبوابهم الخلفية. وكانت الخضار ومحاصيل الحبوب والاحتياجات المنزلية الأخرى تصل إلى أبواب منازلهم عبر هذه القنوات والجداول من داخل المدينة وخارجها. وتعد حدائق سوتشو الكلاسيكية إحدى عجائب فنون العمارة الصينية، وأروع ما فيها أنها بُنيت وفقًا لقوانين الطبيعة. ففيها تلال، وبِرك مياه، وأجنحة، وشرفات، وجواسق، وأبراج، وتنتشر فيها الأزهار من كل الأنواع، والأشجار بأصنافها، مزروعة ومنظمة ومرتبة بشكل بديع فريد، يُضفي على هذه الحدائق منظرًا بديعًا يشبه الفردوس، يُمتّع العين ويشرح القلب، ولا عجب أن تسمَّى الفردوس الأرضي.

أما الفردوس الأرضي الآخر فهو مدينة هانغتشو المشهورة ببحيرتها الغربية،

التي وردت في قصيدة الشاعر الكبير سو دونغ بوه (١٠٣٧م - ١١٠١م)، الأديب المشهور في عهد أسرة سونغ، الذي وصف البحيرة بأبيات رائعة، نقتطف منها: «الأمواج المتهادية تسرّ العين في الأيام المشمسة، والتلال المسترخية ترسم مشهدًا بديعًا في يوم ممطر. البحيرة الغربية تبدو مثل حورية في أروع صورها، سواء تزينت بأروع الملابس أم بأبسطها». البحيرة الغربية كبيرة المساحة والحجم، تحيطها جبال خضراء زاهية تسرّ الناظر في فصول السنة كلِّها. إنَّ جمالَ سوتشو وهانغتشو وروعتهما قد جعلاهما من أروع المقاصد السياحية.

وكما يقول المثل الصيني القديم: «الحكيم يجد المتعة في المياه، والفضيلة في التلال»، فقد ساعدت البيئة الممتازة في البلدات المائية جنوب اليانغتسي، على ظهور شخصيات أدبية، وثقافية، وعلمية، منذ أقدم الأزمنة. وهناك شخصيات أدبية بارزة في تاريخ الصين الحديث، وُلدت هناك، مثل: لو شيون، وماو دونغ، ويوي دا فو، ويه شنغ تاو.

موارد ومنتجات وفيرة

تجسد مناطق جنوب نهر اليانغتسي موردًا مهمًّا جدًّا للزراعة في الصين؛ فسهول جيانغهان وبحيرات دونغتينغ وبويانغ وتايهو، ومنطقة دلتا نهر اليانغتسي، كلها معروفة في الصين بأنها «موطن السمك والأرز». وقد ساعدت الأراضي الخصبة والأمطار الوفيرة وأنظمة الري الجيدة، على زراعة محصولين في السنة وحصادها؛ فمحاصيل مثل فول الصويا، والسلجم الحقلي، والقمح، تُحصد في مطلع الربيع، وتليها زراعة الأرز. وتتميز المنطقة الجنوبية بأنها أكبر مناطق الصين لزراعة الأرز والسلجم الحقلي. وفي بعض

السنوات، يمكن زراعة الأرز مرتين في السنة وحصاده، وهذا يعني تحقيق أعلى مردود من المحصول في الهكتار الواحد مقارنةً مع الأجزاء الشمالية والشمالية الشرقية للبلاد.



قاعدة تشوشان لصيد الأسماك بمقاطعة تشجيانغ، أكبر ميناء صيد في الصين، وتعتبر مركزاً طبيعياً للصيد.

وتشتهر المناطق الجنوبية بزراعة القمح والقطن، وتُعرف كذلك بأنها أكبر منطقة لإنتاج أسماك المياه العذبة في البلاد. فالأنواع الرئيسة الأربعة من سمك الشبوط الصيني التي تربَّى في المنطقة هي: الأسود، والأخضر، والفضي، وذو الرأس الكبير، وكذلك أنواع أخرى من الشبوط كالأبراميس (يُعرف أيضًا بسمك ووتشانغ)، والسمك الفضي، وسمك الماندرين وشبوط وجمبري الأنهار. وهناك منتجات مائية أخرى بالمنطقة تشمل اللوتس، والكستناء المائية، والفيروكس العريض، ورأس السهم، والتشوفا.

يشكّل سهل بحيرة تايخو قاعدة مهمة لتربية دودة القز وإنتاج الحرير، ويعود تاريخها إلى زمن طويل. والناس في هذه المنطقة ذوو تجارب غنية في تربية دودة الحرير، وقد أقامت الحكومة معاهد متخصصة في تربية دودة القز وإنتاج الحرير هناك. وتوفر هذه المعاهد معارف علمية للفلاحين تعزز قدرتهم

على إجادة تربية ديدان الحرير لتعطي شرانق فائقة الجودة. وقد طوَّرت المدن والبلدات القريبة من بحيرة تايهو صناعات تتعلق بغزل الحرير ونسجه وتطويره. وهناك مراكز مشهورة في هذا المجال مثل سوتشو في جيانغسو وهوتشو وهانغتشو في تشجيانغ. وتتمتع منتجات الحرف اليدوية لمنسوجات الحرير في سوتشو، والفنون الحرفية التقليدية للحرير السوبر في هانغتشو بسمعة رائعة في العالم كلِّه.

وعلى ضفاف نهر اليانغتسي، تنتشر التلال بشكل يخلب الألباب، وتنمو عليها الفواكه شبه الاستوائية والمحاصيل التجارية الأخرى، ومن أشهرها أنواع ممتازة من البرتقال إضافة إلى الشاي. ومن المعروف أنَّ الصين هي مهد الشاي والحرير. وقد أثمرت الجهود الممتدة لعدة قرون عن إنتاج أنواع ممتازة من الشاي، وعدد هذه الأنواع وجودتها ما يزال في ازدياد، بفضل التقنيات الجديدة والأساليب المتميزة التي تظهر مع تطور العصر. وتتميز منطقة التلال جنوب نهر اليانغتسي بوفرة التربة الحمراء الحمضية، وتنعم بأجواء طيبة وأمطار وفيرة ومناخ رطب، وهي عوامل ملائمة تمامًا لزراعة الشاي. لذلك، لا يتميز الشاي المزروع والمُنتج في هذه المنطقة بأنه ممتاز النوعية فحسب، بل أيضًا يحتل إنتاجه المركز الأول في البلاد كلِّها. ويُزرع شاي لونغجينغ ويُنتج قرب البحيرة الغربية، ويُنتج شاي بيلوتشون على تلال دونغتنغ قرب بحيرة تايهو في سوتشو، وشاي الإبرة الفضية في جزيرة جونشان قرب بحيرة دونغتنغ في مدينة يويانغ بمقاطعة هونان، وشاي تونشي الأخضر، وشاي تشيمَن الأسود يُزرعان ويُنتجان قرب جبل هوانغشان بمقاطعة آنهوي، وهي جميعها من أشهر الأنواع في العالم.

وتشتهر المناطق المحيطة بالمجاري الوسطى والسفلى لنهر اليانغتسي منذ

القدم بأنها مناطق مهمة لإنتاج الخزف الصيني. وتشتهر مدينة جينغدتشن بمقاطعة جيانغتسي، بمنتجاتها الفاخرة وتقنياتها المتميزة في إنتاج الخزف، إذ تنتج الخزف الأبيض اللامع المصقول. وبفضل المهارة العالية للفنانين والحرفيين فيها، اكتسبت مدينة جينغدتشن لقب «عاصمة الخزف الصيني».

الممر المائي الذهبي

يمتد بين المجاري الوسطى والسفلى لنهر اليانغتسي ممرٌّ مائيٌّ اصطناعيٌّ مهمٌّ يتمتع بتاريخ طويل، هو: القناة الكبرى بكين - هانغتشو. التي يبلغ طولها ١٧٠٠ كم، وتبدأ من بكين في الشمال وتنتهي في هانغتشو في الجنوب. وتمر بخبي، وتيانجين، وشاندونغ، وجيانغتسو، وتشجيانغ، وتمتد عبر أنهار هايخه، والأصفر، وهوايخه، واليانغتسي، وتشيانتانغ. هذا الممر الذهبي كان يربط مناطق جنوب الصين بشمالها، والجزء الواقع منه شمال النهر الأصفر لم يعد يُستخدم منذ مدة طويلة، لكن الجزء الممتد من شاندونغ عبر جيانغتسو إلى تشيجيانغ ما يزال يقوم بدور مهم في النقل.

وتؤدي هذه القناة التي أعيد بناؤها دورًا مهمًّا، سوية مع قنوات النقل الأخرى، وتساعد في نقل الفحم من الشمال إلى الجنوب، ومحاصيل الحبوب من الجنوب إلى الشمال.

ولكن في الوقت الحالي، يعد نهر اليانغتسي الذي يبلغ طوله ١٠,٠٠٠ لي (اللي الواحد يساوي نصف كيلومتر) الممر المائي الذهبي الحقيقي. وهو أطول أنهار الصين، وينبع من جبل جيلاداندونغ الثلجي - القمة الرئيسة لجبل تانغقولا بمقاطعة تشينغهاي. ويُدعى هذا النهر «تيوتيو» في مجاريه العليا، ويُطلق عليه بعدها اسم تونغتيان ثم جينشا. وبعد أن يصل منطقة ييبين، يأخذ

اسمه المعروف وهو اليانغتسي. وبطوله الممتد إلى ٦٣٠٠ كم، فإنه يمثل ثالث أطول الأنهار في العالم، والأطول في آسيا. تمتد المجاري العليا لهذا النهر إلى مسافة ٤٥٢٩ كم، إذ تبدأ من ييتشانغ في هوبي، وتبدأ مجاريه الوسطى البالغ طولها ٩٣١ كم من ييتشانغ إلى هوكو في جيانغشي، ومن تلك المنطقة تبدأ مجاريه السفلى البالغ طولها ٨٤٠ كم باتجاه المصب. وتبلغ مساحة حوض اليانغتسي ١,٨ مليون كم٢، مُحتلةً نحو خُمس إجمالي مساحة اليابسة في الصين، ويتمتع هذا الحوض، الذي يحتوي عددًا من الأنهار المتفرعة من النهر الكبير، بأمطار وفيرة وموارد مائية كثيرة.



كويمن عند مدخل المضائق الثلاثة على نهر اليانغتسي، حيث الجبال العالية على ضفتي النهر، جاعلة إياها مثل الباب المفتوح لنصفه. تعد كويمن عموماً «أعظم مضيق في العالم».

يمرّ نهر اليانغتسي بـ١١ مقاطعة وبلدية ومنطقة ذاتية الحكم، وينقل نحو تريليون متر مكعب من المياه إلى البحر، أي نحو ١٧,٥ ضعف مياه النهر الأصفر، ويمثل أكثر من ثلث إجمالي مياه كل الأنهار في البلاد. ولليانغتسي أكثر من ٧٠٠ رافد، عشرة منها تتمتع بتدفق مياه يصل إلى أكثر من ١٠٠٠ متر مكعب في الثانية لكلٍّ منها.

إنَّ نهر اليانغتسي شريان حيوي رئيس للنقل المائي. ويبلغ مجموع طول أنهار الصين القابلة للملاحة، عدا اليانغتسي، أقل من نصف طوله الإجمالي. فالمجرى الرئيس لليانغتسي، على سبيل المثال من منبعه إلى ييبين في المجاري العليا، صالح للملاحة على مدار السنة. ومجراه بعد نانجينغ مفتوح أمام القوارب والبواخر ذات حمولة ٢٥ ألف طن، ومجراه بين ووهان ونانجينغ مفتوح أمام البواخر والسفن ذات حمولة ٥٠٠٠ طن. ومن ييتشانغ إلى ووهان مفتوح أمام البواخر بحمولة ٣٠٠٠ طن، ومن تشونغتشينغ إلى ييتشانغ يصلح لبواخر ذات حمولة ١٥٠٠ طن. وتمثل الفروع الرئيسة المهمة لليانغتسي مثل هانجيانغ، وشيانغجيانغ، وقانجيانغ، وجيالينغ، ومينجيانغ، وفوجيانغ، ووجيانغ، أنهارا قائمة بعينها. وبما أنَّ اليانغتسي قناة للنقل، فقد ظلَّ قوة دفع متواصلة للتنمية الاقتصادية في المناطق التي يجري فيها.

ولكن، يبدو أنَّ لليانغتسي جانبًا آخر، وكثيرًا ما عانى حوضه من فيضانات خطيرة في تاريخ الصين، وخصوصًا المناطق الواقعة عند مجاريه الوسطى والسفلى. وخلال القرن الماضي وحده، حدثت أربعة فيضانات مدمِّرة راح ضحيتها عشرات الآلاف من الناس، وسبَّبت خسائر اقتصادية جسيمة، لذلك، ظلَّت عمليات مكافحة الفيضانات والوقاية منها في المناطق المذكورة أعلاه على رأس أولويات الجهات المعنية الصينية في هذا المجال.

إلى جانب ذلك، ما تزال تنمية الطاقة الهيدروليكية واستغلالها على هذا النهر لم تبلغ الطموح بعد. فللمجرى الرئيس للنهر وفروعه إمكانيات توليد طاقة كامنة مجتمعة تُقدَّر بنحو ٢٦٨ مليون كيلوواط من الطاقة الهيدروليكية، وهي أعلى قدرة في العالم، وتستطيع تلبية نصف احتياجات الصين من الطاقة الهيدروليكية. لكن الطاقة الهيدروليكية المُولدة حاليًّا هي أقل من عُشر هذه الإمكانيات. وهناك محطة هيدروليكية واحدة على سد قهتشو، ذات قدرة تصميمية مقرّرة بـ٢,٧١٥ مليون كيلوواط، قد بُنيت على ضفة النهر. أما خزان أو سد المضائق الثلاثة على المجاري العليا لليانغتسي، والمُحاط بجبال عالية شاهقة، ففيه مسقط مائي يصل ارتفاعه لنحو ٢٠٠ متر على طول مسار النهر الممتد لمئتي كم في تلك المنطقة. إضافة إلى ذلك، توفر الكميات الهائلة لمياه النهر والإمكانيات الكامنة للطاقة الهيدروليكية، الظروف الملائمة للمهندسين والمختصين لتنفيذ مشروعات ذات صلة هناك. لذلك، يمكن القول إنَّ سدَّ المضائق الثلاثة يتمتع بموقع فريد ملائم تمامًا لبناء محطة طاقة هيدروليكية كبيرة الحجم.

لقد تمت معظم مشروعات البناء في سد المضائق الثلاثة في نطاق ساندوبينغ في مضيق شيلينغ، وهي تتكون من سَدٍّ ومحطة هيدروليكية ومبانٍ للملاحة. وهناك، يشمخ السد بارتفاع ١٨٥ مترًا، ويساند ارتفاعه على خلق خزان هائل بقدرة استيعابية تصل إلى ٤٠ مليار متر مكعب من المياه. إنَّ لهذا السد دورًا كبيرًا في السيطرة على الفيضانات عند المجاري السفلى والوسطى لليانغتسي. وتتمتع محطة الطاقة الهيدروليكية فيه بقدرة تصميمية إجمالية تبلغ ١٨,٢ مليون كيلوواط، وقادرة على توليد ٨٤,٧ مليار كيلوواط/ساعة سنويًّا، ما يمكّنها من إمداد مناطق مجاورة بالطاقة، مثل: تشونغتشينغ، وسيتشوان،

والجزء الأوسط من البلاد، إضافةً إلى إمداد الطاقة للمناطق الشرقية والشمالية، وتحفيز التنمية الاقتصادية وتعزيزها. ويسهم مشروع المضائق الثلاثة في تحسين أساسي لأحوال الملاحة في أنهار سيتشوان، ويقلل كلفة النقل ويقوي الإمكانيات الملاحية إلى أقصى حد.

إنَّ مشروع المضائق الثلاثة هو أكبر مشروع من نوعه في العالم، فهو يوفر خدمات شاملة مثل الوقاية من الفيضانات، وتوليد الطاقة، وتمكين الملاحة، وحماية البيئة. بدأ تنفيذ هذا المشروع رسميًا في ديسمبر عام ١٩٩٤م، وجرى إقفال جزء النهر المتعلق بالمشروع في نوفمبر عام ١٩٩٧م، وهذا الأمر رمز إلى نهاية المرحلة الأولى. وكان من المقرر آنذاك إكمال المشروع في عام ٢٠٠٨م، وبالفعل أكمل معظمه.



مضيق النمر الواثب، أعمق وأضيق مضيق على اليانغتسي، يدهش العالم بقوة تدفقه الاستثنائية.

ووفقًا لخطط التنمية في الصين، فإنَّ حوض نهر اليانغتسي إحدى المناطق الرئيسة المرشحة للتنمية والتطوير، إذ تتمتع بمكانة مساوية للمناطق الساحلية. وفي الوقت الحالي، هناك عدد من الموانئ والمرافئ مفتوحة على اليانغتسي. أما المدن القريبة منه والمعتمدة على موارده المائية والمستفيدة منه كقناة نقل حيوية، فقد جمعت زخمًا تنمويًّا عاليًا أصبح الأساس الصلب لها للانطلاقة نحو المستقبل المشرق. إنَّ بناء منطقة بودونغ بشانغهاي وتطويرها، وبناء سد المضائق الثلاثة قد وفرت فيضًا حيويًّا دافعًا للتنمية الاقتصادية في المناطق على طول النهر.

الجبال المشهورة

هناك عدد من الجبال المشهورة تقف شامخة على المناطق جنوبي نهر اليانغتسي، وهي ليست عالية جدًّا، وتتمتع بمناظر جميلة وسحر خاص، وتجذب كثيرًا من السياح من كل أنحاء العالم.

وهناك جبل هوانغشان الكائن بمقاطعة آنهوي، وهو من بين أشهر جبال الصين، ويتكون من حجر الصوان أو الغرانيت، وترتفع قممه الرئيسة، مثل قمة اللوتس وقمة العاصمة السماوية، فوق مستوى ١٨٠٠ متر. وهناك أربع أعاجيب يمتاز بها هذا الجبل وتسمَّى «الأعاجيب الأربع لجبل هوانغشان»، وتشمل أشجار الصنوبر الخاصة به، والصخور الغريبة، وبحر السحب، والينابيع الحارة. وهناك قول صيني قديم مأثور مفاده: «بعد عودتك من زيارة الجبال الخمسة، لن ترغب بزيارة أي جبل آخر، ولكن بعد زيارة جبل هوانغشان، لن ترغب بزيارة حتى الجبال الخمسة». ولا عجب في أنَّ منظمة الأمم المتحدة للثقافة والتربية والعلوم (يونسكو) قد وضعته ضمن قائمة التراث الثقافي والطبيعي العالمي.

إضافةً إلى ذلك هناك جبل لوشان بمقاطعة جيانغشي، يقابل نهر اليانغتسي في الشمال وبحيرة بويانغ من الشرق، وتتخلله كثير من الشلالات الهادرة التي تضفي عليه مزيدًا من الجمال والسحر والروعة.

كان الأديب المشهور لي باي (٧٠١م - ٧٦٢م) في عهد أسرة تانغ التاريخية الصينية، قد أشاد بهذا الجبل في قصيدة بديعة، جاء فيها: «شعاع الشمس يبخر أنفاس القمة بإكليل من السُحُب، مثل تيار يتموج بصوتٍ هادر كالشلال. تياره يهبط من ارتفاع ثلاثة آلاف قدم، كما لو أنَّ النهر الفضي يتدفق من السماء اللازوردية». وجبل لوشان أحد المقاصد السياحية الصيفية الشهيرة في مناطق المجاري الوسطى لليانغتسي. فالجو هناك بارد حتى في الصيف، في حين ترتفع درجات الحرارة كثيرًا في جيوجيانغ و ووهان عند سفح الجبل.

وتبرز مقاطعة تشجيانغ كموطن لعدد من الجبال والأنهار المشهورة عالميًّا. ففيها جبل ياندانغ الذي توجد عليه آثار قديمة لانصهارات بركانية وعدة قمم منعزلة وشلالات، ولاسيما شلال دالونغتشيو الذي يهبط من علو ١٩٠ مترًا. ويَعدُّ كثيرون هذا الجبل إحدى عجائب الدنيا، لأنَّ مياه الغدران تتدفق من القمم صانعةً ما يشبه السُحب والضباب. أما نهر تشيانتانغ، المعروف أيضًا باسم فوتشون، فيشتهر بمناظره الطبيعية منذ قديم الزمان. وحول مجاريه فوق محافظة تونغلو، كثير من القمم الجبلية الشاهقة والشلالات الهادرة، وتتميز مياهه بأنها بلورية رقراقة. كان الأديب الشهير باي جيو يي (٧٧٢م - ٨٤٦م) من عهد أسرة تانغ، قد وصف النهر بقوله: «نهر يتمتع بخضرة زاهية في الربيع». وعلى المجاري العليا لنهر تشيانتانغ أو فوتشون، أُنشئت محطة هيدروليكية كبيرة فوق رافد شينآن. وهناك بحيرة اصطناعية تبلغ مساحتها

مئات الكيلومترات المربعة تضفي مزيدًا من الجمال على المنطقة المحيطة بها، وتجعل التلال المنخفضة مثل جزر صغيرة زمردية اللون.

وفي منطقة وولينغيوان ذات المناظر الرائعة بالمنطقة الجبلية الغربية في هونان، تكثر غابات الحجر الرملي الرائعة، وتمثل مشهدًا نادرًا لا يمكن رؤيته في أماكن أخرى في العالم. وتجذب هذه المنطقة الجميلة، التي تكثر فيها القمم الجميلة والوديان العميقة، أعدادًا هائلة من السياح من داخل الصين وخارجها. وتقع قمة هينغشان، وهي أشهر قمة في منطقة التلال جنوب نهر اليانغتسي، على الجانب الغربي لنهر شيانغجيانغ بمقاطعة هونان، وتكسوها أشجار زاهية الخضرة وعليها عدد من المناطق المهمة والآثار القديمة. كان الأباطرة غالبًا ما يأتون إلى هذه المنطقة الجبلية لتقديم القرابين والاحترام لآلهة نانيوه في معبد نانيوه.

إلى جانب ذلك، هناك جبل وودانغ في هوبي قرب سهل جيانغهان، وجبل التنين والنمر في قويشي بجيانغتشي، وهي جبال اشتهرت بأنها معابد الطاوية.



جبل هوانغشان الشهير، يتمتع بسحر خاص يتجلى في الكثير من الرسوم التقليدية الصينية.

الحزام الاقتصادي لدلتا نهر اليانغتسي

تحتضن دلتا نهر اليانغتسي عددًا من المدن الحيوية متوسطة الحجم على امتداد خط سكك حديد شانغهاي - نانجينغ، وسكك حديد شانغهاي - هانغتشو، مثل مدن ووتشي، وتشنجيانغ، وتشانغتشو، وسوتشو، وشاوشينغ، ونينغبوه. ولقد شهدت فترة أواخر القرن العشرين نموًّا سريعًا لمدن نانتونغ، ويانغتشو، وييتشنغ، وتايتشو، ومدن أخرى على الضفة الشمالية لليانغتسي، التي شكَّلت دائرة اقتصادية متطورة في دلتا النهر، إلى جانب شانغهاي ونانجينغ وهانغتشو.

إنَّ النمو الاقتصادي السريع الذي شهدته منطقة الدلتا، كان من آثاره زيادة أكبر في الحجم الاقتصادي، وامتلاك أقوى إمكانيات التنمية والانفتاح على العالم الخارجي. ومع أنَّ المنطقة تمتلك ٢٪ فقط من مساحة أراضي الصين و١٠٪ من سكانها، إلا أنها تحتل خُمس إلى ربع إجمالي الناتج الوطني للصين والعوائد المالية للبلاد وصادراتها.



منظر شامل لمدينة شانغهاي، وتظهر ضفتا نهر هوانغيو، وكذلك منطقة بودونغ التنموية الجديدة.

وهناك حواضر المقاطعات على ضفاف اليانغتسي، مثل ووهان في هوبي، ونانتشانغ في جيانغتشي، وخفي في آنهوي، تشكّل أيضًا قواعد صناعية. فعلى سبيل المثال، توجد في ووهان قواعد صناعية للحديد والصلب تعتمد على الموارد الواسعة لخام الحديد، وقاعدة لصناعة السيارات في شيان بهوبي، التي تطورت في ستينيات القرن الماضي، تؤدي دورًا كبيرًا في تعزيز نمو الاقتصاد الوطني.

من زاوية أخرى تشتهر شانغهاي في الصين والعالم بأنها مدينة متطورة. يصل عدد سكانها إلى ١٣ مليون نسمة، يتوزعون بشكل كثيف على مساحة تبلغ ٦٣٤٠ كم مربع. ولقد أصبحت شانغهاي أكبر محور اقتصادي، وميناءً كبيرًا في برِّ الصين الرئيس، وهي من بين مقاطعات ومناطق الحكم الذاتي والبلديات المركزية الصينية، احتل إجمالي قيمتها الصناعية والزراعية السنوي، وإجمالي صادرات البضائع وإمكانيات معالجة عمليات الشحن والتفريغ في مينائها مركز الصدارة.

تقع شانغهاي على الضفة الجنوبية لمصب نهر اليانغتسي، ويجري في وسطها نهر هوانغبو الذي يعد آخر فروع اليانغتسي. ومع أنَّ شانغهاي مدينة مينائية كبيرة، إلا أنَّ أحياءها المركزية لا ترتبط بالبحر، وتبعد عن مصب نهر اليانغتسي في ووسونغ ٢٠ كم. تقع منطقة ميناء شانغهاي بالكامل على ضفة نهر هوانغبو الذي ساعد على إنشاء ميناء شانغهاي الذي نراه اليوم. ويمكن القول إنَّ شانغهاي لم يكن بإمكانها أن ترتقي إلى هذا المستوى والشهرة لولا ميناؤها.

تعدُّ شانغهاي مهد الصناعة الحديثة في الصين، فبعد حرب الأفيون عام

١٨٤٠م، فُتِحت المدينة بوصفها ميناءً تجاريًّا، فجذبت كثيرًا من رأس المال الأجنبي، وتطورت بسرعة لتصبح أكبر مركز مالي في الشرق الأقصى. لقد شهدت تلك الفترة أيضًا نهوضًا متعاقبًا لصناعات حديثة، مثل: الغزل، والنسيج، وصناعة المكائن، وتصنيع الأغذية. وبذلك أصبحت شانغهاي مدينة تجارية تعجُّ بالتجار والمحلات، إضافةً إلى البضائع المحلية والأجنبية. ومنذ تأسيس جمهورية الصين الشعبية، ظلَّت شانغهاي أكبر قاعدة صناعية في الصين وأكبر دافع ضرائب؛ وبذلك جسدت دورًا حيويًّا في البناء الاقتصادي في البلاد.

وتعدُّ شانغهاي أكبر مدن الصين صناعيًّا وتجاريًّا، وفيها كثير من الصناعات الثقيلة والخفيفة والعالية التكنولوجيا، وعدد من القواعد الصناعية الحيوية. ويتمتع عدد من قطاعاتها الصناعية بمواقع متقدمة على مستوى البلاد. أما صناعة الحديد والصلب فهي من الصناعات التقليدية في شانغهاي، وخصوصًا مؤسسة باوشان للصناعات الحديدية، لأنها من مؤسسات الحديد والصلب الرئيسة في البلاد كلِّها. وتؤدي الصناعة البتروكيماوية أيضًا دورًا حيويًّا، إذ تتبوأ مؤسسة جينشان للبتروكيماويات، والواقعة في الضاحية الجنوبية الشرقية للمدينة، موقع الصدارة في البلاد. لقد شهدت تسعينيات القرن الماضي في شانغهاي ظهور ست صناعات رئيسة هي: السيارات، والإلكترونيات، ومعدات الاتصالات، ومعدات المكائن الإلكترونية، والطاقة، والأجهزة المنزلية، والحديد، والصلب، والبتروكيماويات، والكيماوية الدقيقة، التي تشغل دورًا حيويًّا رئيسًا في اقتصاد شانغهاي. كما شهدت ثلاث صناعات رئيسة عالية التكنولوجيا وجديدة هي الدوائر المتكاملة، والكومبيوترات، والصناعات

الدوائية والأحيائية الحديثة، والمواد الجديدة، تطورًا ملحوظًا في شانغهاي، وهي أيضًا تقوم بدورٍ حيوي في الاقتصاد الوطني.

لقد منحت سياسة الإصلاح والانفتاح في الصين قوة جديدة للتنمية في شانغهاي، إذ ساعدتها في تنميتها الاقتصادية بخطى سريعة وراسخة. وساهم قرار الحكومة المركزية في عام ١٩٩٠م، لتطوير منطقة بودونغ بشانغهاي، في جعل المدينة موقعًا نموذجيًا رئيسًا لسياسة الإصلاح والانفتاح في الصين، وأكد رغبة البلاد في مزيد من دفع التنمية وتعزيزها للمناطق كافة على طول نهر اليانغتسي، وفي الصين عمومًا.

تشكل منطقة بودونغ الجديدة نطاقًا من مثلث يقع شرق نهر هوانغبو، وإلى الغرب من مصب نهر اليانغتسي. وتقع في منتصف الخط الساحلي للصين، إذ ينتهي نهر اليانغتسي في البحر، وهي مدعومة بحيويةِ قلب مدينة شانغهاي النابض والمزدهر. وتحافظ منطقة بودونغ على زخم نمو قوي، وتجذب كميات هائلة من رأس المال الأجنبي وعددًا من الشركات المشهورة متعددة الجنسيات. وتتخذ كثير من المؤسسات المحلية الكبيرة شانغهاي مقرًا لها أيضًا. ويتكامل نطاق لوجياتسوي للمال والتجارة مع شارع المال المعروف بالكورنيش، إذ يكون مع مؤسسات مالية وتجارية أخرى، أكثر مراكز المال والأعمال ازدهارًا في الصين. وتحتضن منطقة جينتشياو لأعمال التصدير، كثيرًا من الصناعات الحديثة العالية والجديدة التكنولوجيا. وهناك مجمع تشانغجيانغ لمشروعات التقنيات العالية، ومنها مشاريع هندسة الأدوية الحيوية الحديثة، وهي الأبرز في هذه المنطقة. وهناك منطقة وايقاوتشياو المحمية جُمركيًا، التي تشهد تطورًا سريعًا في أعمال الخدمات والتصنيع والتجارة.



منظر ليلي ساحر لشانغهاي خلال احتفال بأحد الأعياد، ويظهر في الصورة أيضاً برج لؤلؤة الشرق التلفزيوني.

لقد رسمت حكومة بلدية شانغهاي الخطط التطويرية لبودونغ، وأنفقت مبالغ كبيرة على البنية التحتية، وبنت جسرَي يانغبو ونانبو على نهر هوانغبو، اللذان يربطان جانبي المدينة. وتصطف المباني العالية الحديثة على جانبي شوارع مدينة شانغهاي، وتشهد مطارات المدينة وموانيها زخمًا حيويًا، وتعمل بكامل قوتها.

ومقارنة مع مدن الصين الأخرى، فإنَّ شانغهاي لا تتمتع بتاريخ طويل، وليس لديها تلك الميول القوية للثقافة التقليدية. ولكنها تمتلك كلَّ الخصائص المثالية للمدن الحديثة. وخلال أكثر من مئة سنة مضت، تطورت شانغهاي من بلدة ساحلية إلى مدينة عالمية المستوى. ويشكل سكانها من المهاجرين الذين جاء معظمهم من جنوب مقاطعة جيانغتسو وشمال شرقي مقاطعة تشجيانغ، وقليل من خارج الصين، يشكلون نسبة أكبر من سكانها الأصليين الذين تعايشوا معهم، وتكاملوا على مدى سنوات طويلة، مجسِّدين ثقافة فريدة لشانغهاي.

ويتحدث سكان المدينة بلهجة مميزة تمثّل اللهجات المنطوقة في جيانغتسو وتشجيانغ. وتشتهر شانغهاي بأوبرا يويه وفن بينغتان لرواية القصص الشعبية، التي تستند جميعها إلى أوبريتات محلية تقليدية في شاوشينغ وسوتشو ومناطق أخرى في جيانغتسو وتشجيانغ، لكنها تطورت بطريقة فريدة. وإذا تحدثنا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية الحديثة، فإنَّ سكان شانغهاي يحتلون مكانةً متقدمة بين سكان الصين فيما يتعلق بالكفاءة والجدية والفعالية في العمل، وسعيهم إلى مزيد من التحصيل العلمي، ومستوى الحياة المتقدم.

منطقة جنوب غرب الصين

تتكون منطقة جنوب غرب الصين من مقاطعات سيتشوان، ويونان، وقويتشو، إضافةً إلى بلدية تشونغتشينغ. تحدُّها من الغرب هضبة تشينغهاي - التبت - سقف العالم، وتنفصل عن مناطق شرقي الصين بسلاسل من الجبال العالية في الشمال والشرق. وتختلف ظروفها الطبيعية كثيرًا عن مناطق البلاد الأخرى. ويمكن تقسيم منطقة جنوب غرب الصين إلى جزأين، إذ تشكل سيتشوان وتشونغتشينغ حوضًا كاملًا، مُحاطًا بجبال عالية، وإقليمًا جغرافيًا فريدًا من ناحية التضاريس. وتقع كل من يونان وقويتشو على هضبة يونان - قويتشو. وقبل عام ١٩٤٩م كانت البنية التحتية للنقل في مناطق الجنوب الغربي الجبلية متخلفة. وبرغم التحسن الكبير لظروف المواصلات والاقتصاد هناك بعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية، إلا أنَّ النقل ظلَّ عقبةً كبيرة في منطقة الجنوب الغربي، مُشكِّلًا عائقًا يكبح التنمية الاقتصادية.

التضاريس والنقل والمواصلات

هناك مثل شعبي صيني يقول: «إنَّ طرق سيتشوان عالية وخطيرة جدًّا، والسفر هناك أكثر صعوبة من الصعود إلى السماء». إنَّ حوض سيتشوان معروف منذ القدم بأنه منطقة بعيدة يتعذر الوصول إليها. فهو مُحاط بسلسلة من الجبال والهضاب: فهناك جبال تشينلينغ ودابا في الشمال، وجبال ووشان في الشرق، وجبال هنغدوان وهضبة تشينغهاي - التبت في الغرب، وجبال دالو وهضبة يوننان - قويتشو في الجنوب. وتتميز الجبال والهضاب العالية هناك بمعدل ارتفاع يراوح بين ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ متر، مُشكلة حواجز طبيعية تعيق حركة النقل. وقبل خمسينيات القرن الماضي، كان في سيتشوان ٦٠ كم فقط من خط حديدي يُستخدم للمناجم، وبعض الطرق الرديئة، وممر نقل مائي خطير جدًّا في نهر اليانغتسي، الذي يربطها ببقية مناطق البلاد.



منظر رائع لمنطقة هوانغلونغ بمقاطعة سيتشوان المعروفة بمناطقها السياحية البديعة التي يندر رؤية شبيه لها في العالم.

وتبدو هضبة يوننان - قويتشو مختلفة تمامًا عن هضبة منغوليا الداخلية، وذلك بسبب أراضيها الوعرة وجبالها العالية. وهناك مثل شعبي في قويتشو يصف تمامًا المناطق الجبلية بالقول: «الأيام المشمسة لا تستمر لثلاثة أيام متتالية أبدًا، والطرق لا تستمر منبسطة لثلاثة ليات». وقبل تأسيس جمهورية الصين الشعبية، كان في هضبة يوننان – قويتشو طرق بائسة، إذ لا يوجد فيها طريق واحد يمكن اعتباره مقبولًا، سواء كان بريًّا أو حديديًّا، عدا خط حديدي ضيق، يمتد من كونمينغ، حاضرة مقاطعة يوننان، إلى مدينة هانوي الفيتنامية. وإذا أراد الناس زيارة مناطق أخرى في البلاد، تعيّن عليهم الذهاب أولًا إلى فيتنام، ومنها يركبون البواخر لنقلهم إلى مدن ساحلية صينية أخرى، ومنها يسافرون إلى مقاصدهم. ولحلِّ مشكلة النقل والمواصلات في المناطق الجنوبية الغربية، خصصت حكومة الصين المركزية مبالغ طائلة وبذلت جهودًا كبيرة، لبناء خطوط سكك حديد تشنغدو – تشونغتشينغ وباوجي – تشنغدو وتشونغتشينغ – قويانغ وتشوتشو – قويانغ وقويانغ – كونمينغ وتشنغدو – كونمينغ وشيانغفان – تشونغتشينغ. وحققت الحكومة كهربة هذه الخطوط، وهذا الأمر طوّر كثيرًا شبكة النقل جنوب غرب الصين. وهناك خط سكة حديد ناننينغ – كونمينغ، الذي أكمل عام ١٩٩٧م، ويسير من المناطق الجنوبية الشرقية ليوننان، والمناطق الجنوبية الغربية لقويتشو والأجزاء الشمالية الغربية لمنطقة قوانغتشي ذاتية الحكم لقومية تشوانغ، ويصل إلى مدينة بيهاي. وتمثل مدينة بيهاي –الميناء في قوانغتشي طريقًا حيويًّا لمناطق الجنوب الغربي، إذ يربطها بالبحر.

لقد بُنيت كثير من الطرق في مناطق جنوب غرب الصين. واليوم هناك

طرق متنوعة من بينها طرق سريعة عالية المستوى، تربط المقاطعات والمدن والمحافظات في المنطقة، وتربط المنطقة كذلك بالأماكن المهمة في البلاد. لقد بُذلت جهود جبارة في خمسينيات القرن الماضي، وأكمل بناء الطريق العام السريع سيتشوان - التبت (من تشنغدو إلى لاسا)، والطريق العام السريع يوننان - التبت (من كونمينغ إلى لاسا). وكان العمل فيها صعبًا وشاقًّا؛ لأنَّ تلك الطرق تمر بجبال شاهقة ومناطق متعرجة وملتوية. وتؤدي هذه الطرق اليوم دورًا حيويًا، إذ إنها تربط التبت بمناطق الصين الداخلية. وفي تشنغدو، وتشونغتشينغ، وكونمينغ، وقويانغ عدد من المطارات المدنية الحديثة التي توفر خطوطًا متعددة تربط هذه المدن والبلديات بعدة مناطق داخل الصين وخارجها.

أما خط النقل المائي على نهر اليانغتسي، الذي يربط سيتشوان وتشونغتشينغ ببقية أنحاء البلاد، فيعرف بـ«ممر تشوانجيانغ للنقل المائي». ومنذ قديم الزمان يراه أصحاب القوارب «طريقًا مُرعبًا» بسبب التدفق العارم والخطير لنهر اليانغتسي، إضافةً إلى وجود كثير من الصخور المخفية في قاع النهر. ومنذ تأسيس جمهورية الصين الشعبية، أنشأت الحكومة قواعد شاملة لتنظيم النقل المائي، ساهمت كثيرًا في تحسين الملاحة في النهر. وفي مطلع ثمانينيات القرن الماضي بُنيت محطة سد قهتشو الكهرمائية، التي شاركت بمزيد من تطوير الملاحة وتحسينها في جزء المضائق الثلاثة. ويساهم مشروع المضائق الثلاثة الهيدروليكي، ببحيرته الاصطناعية الطويلة الممتدة من تشونغتشينغ إلى ييتشانغ، في جعل هذه المنطقة شريانًا حيويًا للنقل المائي، خاليًا من أيِّ عقبات.

الأرض وفيرة الخيرات والحزام الاقتصادي تشنغدو - تشونغتشينغ

تُعرف سيتشوان منذ القدم بأنها «الأرض وفيرة الخيرات»، وتتمتع بظروف اقتصادية أفضل من يوننان وقويتشو، لأنها تطوَّرت قبلهما. ويتمتع سهل تشنغدو في الجزء الغربي من سيتشوان بأراضٍ خصبة منبسطة. وقبل أكثر من ألفي سنة، استغلَّ الناس هناك ميزة درجة الميل الطبيعي لمنطقة الممر، إذ يتدفق نهر مِينجيانغ من الجبال، وبنوا نظام ريّ دوجيانغيان لتحويل المياه من النهر إلى المناطق السهلية. ومنذ ذلك الحين، لم يشهد سهل تشنغدو أيَّ جفاف أو فيضان، وأصبح يحقق حصادًا وفيرًا كلَّ سنة. وكان وما يزال من أفضل مناطق الصين من ناحية التطور الزراعي.

إنَّ سيتشوان معروفة بعدد سكانها الكبير، وبتحقيقها حصادًا سنويًّا عاليًّا من محاصيل الحبوب.

وتوفر التضاريس الخاصة هناك ظروفًا حراريةً أفضل لحوض سيتشوان، مقارنةً بما هو موجود في مقاطعات هوبي وآنهوي وجيانغتسو، الواقعة على خط العرض نفسه. تُزرع وتُنتج في سيتشوان محاصيل متنوعة كثيرة من الحبوب، وتحقق مردودًا سنويًّا عاليًا أفضل مما في المقاطعات الثلاث المذكورة أعلاه؛ وذلك بفضل تمتعها بدرجات حرارة أعلى. وتتمتع كذلك بظروف ملائمة لزراعة فواكه شبه استوائية، مثل: الليتشي، واللونغان اللتين لا تتوفران إلا في قوانغدونغ وقوانغتشي وفوجيان.

وتُعرف سيتشوان أيضًا بمواردها المعدنية الوفيرة تحت الأرض، والتي تشمل الحديد، والفحم، والغاز الطبيعي، والنفط وعددًا من المعادن غير الحديدية. وتمتلك بانتشيهوا، الواقعة على ضفة نهر جينشا، أكبر كمية من

مخزون الحديد في جنوب غرب الصين، وتُنتج خام الحديد والفاناديوم والتيتانيوم والمعادن والفلزات غير الحديدية الأخرى، كما تمتلك أكبر احتياطي في العالم من هذه المواد. وبُني في بانتشيهوا عدد كبير من مصانع الحديد والصلب الضخمة، والتي تنتج ملايين الأطنان من هاتين المادتين، إضافةً إلى الفاناديوم والتيتانيوم. ولقد جرى بناء هذه المدينة الصناعية الحديثة في الوادي العميق لنهر جينشا، من أجل استخراج خام الحديد وإنشاء قواعد لصهره هناك.

إلى جانب ذلك فإن سيتشوان هي إحدى مقاطعات الصين الكبرى في إنتاج الغاز الطبيعي. وتنتج مدينة تسيقونغ فيها ملح البئر منذ القدم، وتُعرف هذه المدينة بـ«عاصمة الملح». ومنذ أكثر من ألف سنة، استمرَّ سكانها المحليون في استخراج الملح والغاز الطبيعي في آنٍ واحد. وقد تحقق استغلال الغاز الطبيعي على نطاق واسع ليستخدم في الصناعات الكيمياوية.

إنَّ سيتشوان غنية بموارد المياه، وتمتلك مناطق نهر جينشا، وهو المجرى الرئيس لنهر اليانغتسي، وكذلك فروعه، مثل دادو، ويالونغ، و ووجيانغ، ومينجيانغ، إمكانيات هائلة لتوليد الطاقة الهيدروليكية. في الحقيقة، فإنَّ هذه الأنهار تمتلك الإمكانية الأعلى بين أنهار البلاد. ومن ضمن المحطات الهيدروليكية هناك، محطات قونغتسوي على نهر دادو، ومحطة ووجيانغدو على نهر ووجيانغ (في مقاطعة قويتشو) ومحطة أرتان على نهر يالونغ.

وفي حوض سيتشوان مدينتان كبيرتان هما تشنغدو وتشونغتشينغ، إذ تقع الأولى في الجزء الشمالي الغربي بينما تقع الثانية في الجنوب الشرقي. وترتبط المدينتان بخط سكك حديد تشنغدو- تشونغتشينغ. وهناك عدد من

المدن متوسطة الحجم، مثل: تسيقونغ، ونيجيانغ، ولوتشو، وييبين، وديانغ، وميانيانغ، التي تنتشر حول المدينتين الكبيرتين وعلى طول خط السكك الحديدية بينهما. وتمتلك معظم هذه المدن خصائص مميزة لها، إذ تؤدي الصناعات المُقامة فيها دورًا كبيرًا في غرب الصين. وتشكّل هذه المدن مُجتمعةً نطاقًا اقتصاديًّا تنافسيًّا يُعرف بتشنغدو - تشونغتشينغ.



جبل هوانغشان الشهير، يتمتع بسحر خاص يتجلى في الكثير من الرسوم التقليدية الصينية.

تأسست بلدية تشونغتشينغ في عام ١٩٩٧م، وهي الأحدث بين أربع بلديات مركزية في الصين، وأكبرها حجمًا، إذ تبلغ مساحتها ٨٢ ألف كم٢، ويقطنها ٣٠,٠٢ مليون نسمة.

تمثل تشونغتشينغ محورًا للنقل في جنوب غرب الصين، وهي نقطة التقاء لنهري اليانغتسي وجيالينغ، إضافةً إلى أنها نقطة ارتباط لخط سكك حديد

تشنغدو – تشونغتشينغ، وكذلك خط شيانغفان – تشونغتشينغ الحديدي، وخط سكك حديد سيتشوان – قويتشو. إضافةً إلى أنها أكبر محور اقتصادي في جنوب غربي الصين، وعلى المجاري العليا لنهر اليانغتسي أيضًا. وتمتلك هذه المدينة عالية التصنيع ثلاثة محاور أساسية، وهي: صناعة السيارات والدراجات النارية، والكيماويات، والتعدين. ويشكل إنتاجها من الدراجات النارية ثلث الإجمالي الوطني. وتولي تشونغتشينغ اهتمامًا بالغًا في تطوير الصناعات التنافسية، مثل: معدات المكائن الكهربائية، والمعلومات الإلكترونية.

تتمتع هذه البلدية بموارد طبيعية وفيرة، وبكثير من المنتجات الثانوية الزراعية، ففيها احتياطيات من الفحم والغاز الطبيعي والحديد ومعادن أخرى ومعادن لا فلزية، وهي من بين القليل من المدن الصينية الكبيرة التي تحقق الاكتفاء الذاتي من موارد الطاقة.

وتتميز تشونغتشينغ بعلاقات اقتصادية وثيقة مع المقاطعات في جنوب غرب الصين ومع مدن أخرى على المجاري العليا لنهر اليانغتسي، وتشكل أهمية كبيرة في تنمية غرب الصين. أما المنطقة التي تتخذ من تشونغتشينغ مركزًا لها، وتمتد على شكل دائرة نصف قطرها ٥٠٠ كم، ويقطنها أكثر من ١٠٠ مليون نسمة، فتشمل ثلاث حواضر لمقاطعات ومدن كبيرة يقطنها مليونا نسمة أو أكثر، إضافةً إلى أكثر من ثلاثين مدينة متوسطة الحجم يقطنها ٣٠٠ ألف نسمة ونيف. وفي هذه المنطقة أيضًا بُني مشروع المضائق الثلاثة الهيدروليكي، وهو الأكبر في الصين. كل هذه العوامل تعطي لتشونغتشينغ، مكانةً وقوةً دافعة لتسريع خطى التنمية الاقتصادية والاجتماعية في المناطق الوسطى والغربية للصين، وذلك بوصفها المدينة الاقتصادية المثالية والحيوية.

التضاريس الكارستية

تشكل مساحات الحجر الكلسي ٨٠٪ من المساحة الإجمالية لقويتشو في جنوب غرب الصين، وتغطي مساحات واسعة أخرى في الجزء الشرقي من يونان، مشكلةً أكثر من نصف مساحة أراضي المقاطعة. إنّ انتشار التضاريس الكارستية بشكل واسع في المنطقة سببه الجو الرطب والحار، إضافةً إلى عوامل التعرية من المياه والرياح على مدى آلاف السنين. فهناك أشكال متنوعة، مثل المناطق الصخرية والغابات الحجرية، وغابات القمم والأقماع المتآكلة، والأراضي المنخفضة بين التلال (تشبه دوارق المحاليل)، وأنهار وكهوف تحت الأرض. وتمثل جميعها مراحل نشوء وتطور مختلفة للحجر الكلسي، ويمكن رؤيتها في كلِّ مكان من مقاطعتي يونان وقويتشو. وتتكون الغابة المشهورة المعروفة بـ«الغابة الحجرية» في لونان بيونان من عدد من الأعمدة الكلسية التي تشمخ بارتفاعات مختلفة، تراوح بين عدة أمتار وعشرات الأمتار، وبذلك تحوَّلت إلى منطقة منظرية جميلة. وتوفر المنطقة المنظرية السياحية لنهر ليجيانغ في قويلين بقوانغتشي نوعًا آخر من التضاريس الكارستية التي يمكن وصفها بتضاريس غابة القمم.

والتضاريس الكارستية ذات قيمة سياحية رائعة، وما شلال هوانغقوشو إلا مثال واحد على هذه التضاريس الطبيعية البديعة. ويمثل هذا الشلال الذي يرتفع لأكثر من ٦٠ مترًا، ستارة مائية هائلة، تحدث صوتًا هادرًا يصم الآذان، وتبدو كما لو أن كمًّا هائلًا من اللآلئ يسقط على صفحة من الحجر الكريم عند هبوط مياه الشلال إلى البِركة التي تحتها. وهناك كثير من شلالات المياه الأصغر التي تخلق جميعها مجموعة كبيرة من المناطق السياحية الطبيعية.



غابة لونان الحجرية في مقاطعة يونان، تمثل منظراً مثالياً للتضاريس الكارستية.

لكن هذه المناطق الكارستية تعد من أفقر مناطق الصين، لأنَّ الزراعة هناك محدودة جدًّا نظرًا لشحّ المياه. أما التشققات على سطح الأرض وتحت الكهوف الكلسية فتتسبب في استحالة جمع مياه الأمطار. ودفع هذا الأمر الحكومة الصينية الشعبية إلى وضع هذه المنطقة على رأس أعمالها في مجال تخفيف مكافحة وإزالته. لقد نجحت بعض مناطق الأراضي المنخفضة بين التلال (التي تشبه دوارق المحاليل)، وبعض الأودية الواسعة قرب الأنهار، والتي تتمتع بظروف طبيعية أفضل وأراضٍ منبسطة، في تطوير الزراعة وبعض الصناعات إلى حدٍّ معين، وبنت كذلك بلدات وقرى كبيرة نسبيًّا. يسمي الناس في هذه المناطق الأراضي المنخفضة «بازي»، والتي تعني كما قلنا (الأراضي المنبسطة المنخفضة بين التلال). إذ ينتشر بعضها على مساحة أكثر من ١٠٠ كم٢، وفيها

كثير من الممرات المتقاطعة في الحقول والقرى. وتشكل الجزء الأكبر من المنطقة الكلسية. وتقع مدينة كونمينغ حاضرة يوننان، ومدينة قويانغ حاضرة قويتشو في الحوضين الكبيرين للمقاطعتين.

إنَّ البحوث المتعلقة بالمنطقة الكارستية والجهود التطويرية لها تحمل مفتاح التنمية الاقتصادية المحلية هناك. وتتمتع الصين بتاريخ طويل في مجال البحوث الكارستية. فقبل أكثر من ٤٠٠ سنة، وخلال نهاية عهد أسرة مينغ، كرّس الرحالة العظيم شيوي شيا كه حياته لدراسة المنطقة الكارستية. وتحتوي مذكراته على ملاحظات مهمة جدًّا حول التضاريس الكارستية في يوننان وقويتشو، وتزخر بقيمة علمية عظيمة حتى يومنا هذا.

الأقليات القومية المتعددة

تحتضن مناطق جنوب غرب الصين أكبر التجمعات السكنية للأقليات القومية الصينية، وأكبرها قوميتا يي ومياو، حيث يبلغ عدد أبنائها أكثر من ٥ ملايين لكل منهما. وهناك أقليات قومية، مثل بويي، ودونغ، وباي، وهاني، والتبت، يصل عدد أفراد كل منها لأكثر من مليون. أما الأقليات القومية الأخرى الأصغر فيراوح عدد أبنائها بين عشرات الآلاف ومئات الآلاف. وهناك عدة أقليات قومية تمتلك عددًا قليلًا من الأفراد، مثل قومية دولونغ، إذ يبلغ عدد أفرادها عدة آلاف فقط.

تسكن معظم الأقليات القومية في سيتشوان في مناطق جبل هنغدوان في الجزء الغربي من المقاطعة، بينما يعيش أبناء قوميتي تشيانغ وبي في وديان جبل هنغدوان، ويتركز التبتيون في هضبة غربي سيتشوان، وتتشابه عاداتهم وتقاليدهم وأزياؤهم التبتيين في هضبة تشينغهاي – التبت.

وتعيش الأقليات القومية في مقاطعتي يوننان وقويتشو في تجمعات مختلطة على أراضٍ واسعة، وهناك ممن يفضلون العيش في تجمعات مستقلة متركزة في مناطق صغيرة. ووفقًا للإحصاءات، فإنَّ ثلثي البلدات في يوننان وقويتشو تقطنها أقليات قومية متنوعة. لكن الجماعات المستقلة أوجدت طريقة حياة فريدة خاصة بها برغم عيشها في مناطق مختلطة القوميات. فبعض الأقليات القومية تعيش في وديان منبسطة، وبعضها على سفوح الجبال، بينما تقطن أخرى في أعالي الجبال حيث بَنَت مساكن تشبه السلالم.

تتمتع كافة الأقليات القومية التي تعيش على هضبة يوننان – قويتشو بتاريخ طويل وثقافة فريدة ومميزة.



نموذج من كتاب دونغبا المقدس بلغة قومية ناشي، الحروف الظاهرة تعود لرموز هيروغليفية بدائية، تتمتع بأهمية أكاديمية كبيرة في دراسات اللغة المكتوبة والمجتمع البشري.

فيتميز أبناء قوميتي مياو وبويي بمستوى تعليمي عالٍ، ويعيشون بصورة رئيسة في الجزء الجنوبي من قويتشو. وينبغي على نساء هاتين القوميتين تعلُّم فنون التطريز والصبغ الشمعي وإجادتها، تلك التي تتمتع بسمعة رائعة في داخل الصين وخارجها.

ويشكل المواطنون من قوميات ناشي وباي وهاني وداي السواد الأعظم من الأقليات القومية في يونان. ويتركز أبناء قومية ناشي الذين ظهر من بينهم كثير من المثقفين المشهورين، في ليجيانغ، ويمتلكون لغةً وكتابةً خاصتين بهم. ويحظى كتاب دونغبا المقدس، كبير الحجم الذي كُتب بلغة قومية ناشي، بقيمة أدبية وتاريخية عظيمة.

ويعدُّ أبناء قومية موسوه، الذين يعيشون على ضفاف بحيرة لوغو في أقصى المناطق الجبلية شمالي يونان، فرعًا من قومية ناشي، وهم الأقلية القومية الصينية الوحيدة التي ما زالت محافظة على تقاليد المجتمع الأمومي. ويتمتع شباب هذه القومية بحرية اختيار شركاء حياتهم للزواج، إذ يعيش الاثنان مع بعضهما بعضًا للفترة التي يرغبان فيها. وإذا تبين أنَّ زواجهما غير مستقر فبإمكانهما الانفصال في أي وقت يشاءان. أما الأطفال المولودون من هذا الزواج المعروف بـ«آتشو» فيحملون اسم عائلة أمهم، ولا يملك الأب أي حق فيهم أو واجب تجاههم بعد الانفصال. وتحظى هذه القومية باهتمام الباحثين من كل أنحاء العالم لأنهم من الجماعات القليلة التي ما فتِئت تتمسك بتقاليد المجتمع الأمومي.

وتعيش قومية باي في المنطقة الواقعة فيما بين جبل تسانغشان وبحيرة أرهاي في يونان. وقبل أكثر من ألف سنة، تأسست في هذه المنطقة مملكتا نانتشاو ودالي، ودامتا لمئات السنين. وتمثل أطلال مدينة تايخه، والباغودات الثلاث في معبد تشونغشنغ، واللوحة التذكارية لنانتشاودهوا، رموزًا ثقافية لمجتمع باي الذي وصل أوج تطوره في تلك الفترة. ولهذه القومية مهرجان تقليدي اسمه «عيد شارع الشهر الثالث القمري»، إذ يخرج الجميع إلى شوارع دالي يغنّون ويرقصون بأزيائهم التقليدية الزاهية.

أما قومية داي فتتمتع بشهرة واسعة لرقصاتها الجميلة وسحرها الخاص، وتعيش أساسًا في الأراضي المنخفضة على طول نهر لانتسانغ في شيشوانغ باننا، وهي مدينة في أقصى الجنوب الغربي ليوننان. ويمكن رؤية مساحات واسعة من مزارع المطاط والقهوة في المنطقة الاستوائية، التي تتوزع فيها مساكن مبنية من البامبو، مُشكِّلةً منظرًا بديعًا. ويؤمن أبناء داي بالبوذية على طريقة هينايانا، التي تعني أنه يتعين على كل عائلة أن ترسل ولدًا منها إلى المعبد لدراسة كتب البوذية المقدسة ليصبح راهبًا.

وأما أبرز رمز لهذه القومية فهو الباغودا البوذية ذات الشكل المدور والرأس المدبب. وفي بداية كل سنة تقليدية لقومية داي، يحتفل أبناؤها بـ«عيد رش الماء» وهو احتفال تقليدي يُصلّون فيه من أجل سنة أفضل.

ويعيش أبناء قومية هاني في منطقة جبل آيلاو وعلى ضفتي النهر الأحمر جنوبي يوننان. وقد طوَّروا أنماطًا زراعية، وبنوا حقولًا مدرجة على المنحدرات، التي أصبحت الآن جزءًا من المناظر الثقافية المشهورة.

الحيوانات والنباتات النفيسة والنادرة

يوجد كثير من الحيوانات والنباتات النفيسة والنادرة في مناطق جنوب غربي الصين، فالباندا العملاق يعد من أندر الحيوانات في العالم، وهو «كنز وطني» للصين. وقد أثبتت المتحجرات أنَّ حيوانات الباندا العملاقة التي استوطنت الأرض قبل ملايين السنين، قد توزَّعت على معظم مقاطعات الصين الجنوبية. وتركت آثارها حتى في منطقة تشوكوديان (موطن إنسان بكين) في بكين. وقد تسببت التغيُّرات المناخية الكبيرة، وخصوصًا الانخفاض الكبير في

درجات الحرارة خلال العصور الجليدية، في خفض أعداد الباندا العملاق وأنواعه بشكل لافت، وهذا الأمر دفعها إلى حافة الانقراض، ويمكن اليوم رؤية هذا الحيوان المحبوب الذي يشبه الدب في المناطق الحدودية لمقاطعات سيتشوان وقانسو وشنشي فقط، حيث هناك المحميات الطبيعية التي بُنيت للحفاظ على هذا الحيوان النادر، وإحدى هذه المحميَّات الطبيعية محمية وولونغ في المنطقة الغربية الجبلية لسيتشوان. بُنيت هذه المحمية عام ١٩٧٥م على مساحة ٢٠٠٠ كم٢ في منطقة جبلية عالية، ووديان عميقة، وأمطار غزيرة، وأشجار كثيفة، وخصوصًا سيقان البامبو الخضراء الطرية التي تعد الطعام الرئيس للباندا العملاق. وفي هذه المحمية يوجد أكبر عدد من هذا الحيوان، ويصل إلى نحو مئة.



الباندا العملاق في محمية طبيعية.

ويولي صندوق حماية الحياة البرية الطبيعية (WWF) اهتمامًا خاصًّا لأعمال حماية الباندا، حيث أقام مسؤولون من هذا الصندوق ونظراؤهم من الصين محطات مراقبة في محمية وولونغ الطبيعية؛ بغرض إجراء بحوث معمّقة حول هذا الحيوان وأماكن معيشته وعاداته وعملية تكاثره، وأثرِ النشاطات الإنسانية في أنواعه النادرة. وتساعد هذه البحوث على وضع إجراءات فعَّالة لتوفير حماية أفضل للباندا وللأنواع النادرة الأخرى.

تقع منطقة تشيشوانغ باننا في الطرف الجنوبي الغربي ليونان، وتتمتع بمناخ حار ورطب طوال السنة. وعلى مناطقها الجبلية هناك كثير من الغابات المطرية الاستوائية، التي يندر وجودها في أماكن أخرى بالصين. تتمتع هذه الغابات بأشجار دائمة الخضرة، وكثير من الأنواع النباتية الـمُعرّشة والمجدولة. وهذه الغابات تحتوي كمية كبيرة ومتنوعة من النباتات، من بينها أكثر من ٤٠٠٠ نوع عالي الدرجة، وعدد من النباتات من الدرجة الأولى والثانية، المشمولة بالحماية على المستوى الوطني. وبعضها يتمتع بقيمة اقتصادية عالية جدًّا إذ يمكن استخدامها في مجالات متنوعة كالبهارات والعقاقير أو في استخراج الزيت، وبعضها ذو أهمية كبيرة في العقاقير التقليدية الصينية، مثل سانتشي وهو عشب صيني تقليدي يُستخدم عنصرًا أساسيًّا في عقار بايياو في يونان، الذي يفيد في وقف النزيف بشكل فوري وتخفيف الورم. وهذه الغابات الاستوائية الواسعة هي موطن الحيوانات النادرة، مثل: الفيل الآسيوي، والطاووس الأخضر، ونمر البنغال.

لقد تسببت التنمية الاقتصادية والأعداد المتزايدة للسكان في إلحاق ضرر كبير بالغطاء النباتي الاستوائي في تشيشوانغ باننا. ومن أجل حماية هذه

الغابات وما تحتويه من أصناف نادرة حيوانية ونباتية، أقامت الحكومة الصينية محميات طبيعية هناك. ومعهد بحوث للنباتات الاستوائية أيضًا، وهذا المعهد متخصص في بحوث حماية هذه الحيوانات والنباتات. وقد نجح الخبراء ببحوثهم وتجاربهم في تربية نباتات استوائية جيدة اقتصاديًّا، مثل المطاط والكاكاو والقهوة وأنواع أخرى، وحققت أعمالهم نتائج ملحوظة طيبة.



النباتات المجدولة منظر شائع ومميز في الغابات الاستوائية.

منطقة جنوب الصين

تضم هذه المنطقة مقاطعات قوانغدونغ، وفوجيان، وهاينان، وتايوان، ومنطقة قوانغتشي الحكم لقومية تشوانغ، إضافةً إلى منطقتي هونغ كونغ وماكاو الإداريتين الخاصتين. وتقع هذه المنطقة على حزامين شبه استوائي واستوائي، ينعمان بظروف طبيعية ومظاهر ثقافية تختلف تمامًا عن تلك التي تقع على المجاري الوسطى والسفلى لنهر اليانغتسي.

تبادلات خارجية طويلة الأمد وأعداد كبيرة من الجاليات الصينية

كانت جنوب الصين منطقة نائية في الماضي القديم، وتختلف ثقافتها، التي تطورت على مدى قرون، كثيرًا عن وسط الصين. وقد سببت الفترات الطويلة من الانفصال الجغرافي ظهور اختلافات إقليمية حادة ولهجات متعددة، فعلى سبيل المثال، يتحدث المواطنون في تشيوانتشو (مدينة الزيتون) وشيامَن في فوجيان بلهجة مينّنان، بينما يتحدث سكان تشاوتشو وشانتو في مقاطعة قوانغدونغ بلهجة تشاوتشو، ويتحدث سكان قوانغتشو حاضرة المقاطعة بلهجة قوانغتشو. يتميز المواطنون في جنوب الصين بتمسكهم بتقاليد تاريخية أثناء قيامهم بأعمالهم التجارية مع الخارج، لأنَّ جميع المقاطعات والمناطق في جنوب الصين تتمتع بخطوط ساحلية؛ ففوجيان وقوانغدونغ لا تمتلكان سواحل طويلة فحسب، بل تتمتعان أيضًا بموانئ ممتازة في تشيوانتشو وقوانغتشو. ومنذ أقدم العصور ظلَّ هذان الميناءان أهم موانئ البلاد في مجال التجارة الخارجية. فقد تطورت تشيوانتشو لتصبح ميناءً من الطراز الأول قبل ألف سنة خلال فترة أسرة سونغ الجنوبية، وجذبت التجار من مختلف أنحاء العالم، حتى إنَّ بعضهم استقرَّ فيها أو حولها.

وبعد أن فتحت الصينُ أبوابها على العالم الخارجي بعد حرب الأفيون عام ١٨٤٠م، استخدم عدد من الصينيين الطريق البحري للهجرة إلى دول جنوب شرق آسيا لكسب الرزق. وبعضهم أبحروا نحو الغرب، وحملوا معهم لهجاتهم أيضًا. وحتى اليوم، هناك كثير من الصينيين في دول العالم ومناطقه يتحدثون بلهجات مينان وتشاوتشو وقوانغتشو.



مدينة قوانغتشو، التي تقع في قلب دلتا نهر اللؤلؤ، تتمتع بتأثير واسع النطاق على معظم مناطق الصين وحتي جنوب شرق آسيا والعالم.

وتُظهر إحصاءات رسمية أنَّ معظم الصينيين الذين هاجروا إلى الخارج من جنوب البلاد، كانوا من تشيوانتشو وشيامَن وتشانغتشو في فوجيان، وتشاوتشو وشانتو في قواندونغ قرب مصب نهر اللؤلؤ، ويصل عددهم لأكثر من ١٥ مليونًا، مُشكلين أكثر من نصف الصينيين في الخارج. إضافةً إلى ذلك، تحتضن مناطق جنوب الصين نحو ٦ ملايين مهاجر عادوا إليها من الخارج، لذلك تسمَّى بـ«موطن الجاليات الصينية».

وبرغم ابتعادهم عن أرض الوطن، إلا أنهم ما زالوا يحفظون مشاعر الحب العميق لوطنهم الأم، ويسهمون في تحقيق التطور والنمو لمناطقهم، من خلال

تبرعاتهم وإسهاماتهم الأخرى. وفي سبعينيات القرن التاسع عشر، قدّم مواطنون هاجروا إلى الخارج من تشيوانتشو تبرعات مالية لبناء مدرسة تشوينغ الابتدائية في المدينة، وهي من أوائل المدارس الحديثة في الصين. أما جامعتا جيمَي وشيامَن اللتان أسسهما رئيس الرابطة الوطنية للصينيين في الخارج، تشن جيا قنغ، في عامي ١٩١٣م و١٩١٩م، فتتمتعان بشهرة واسعة حتى يومنا هذا. ومنذ بدء الصين سياسة الإصلاح والانفتاح في عام ١٩٧٨م، جرى إنشاء المناطق الاقتصادية الخاصة في شنتشن، وتشوهاي، وشانتو، وشيامَن، وهاينان، وتأسيس مدن ساحلية منفتحة على العالم الخارجي، مثل فوتشو، وقوانغتشو، وتسانجيانغ، وبيهاي. ومناطق مثل دلتا نهر اللؤلؤ ودلتا جنوب فوجيان التي تشمل شيامَن وتشانغتشو وتشيوانتشو. وبفضل ذلك، تمكّنت مناطق جنوب الصين من جذب كميات هائلة من رأس المال من الجاليات الصينية في الخارج ومن المواطنين في هونغ كونغ وتايوان، لأجل تطوير اقتصاد موجه إلى الخارج، وقيادة انفتاح الصين على العالم.

الأنهار الكبيرة في لينغنان

نهر اللؤلؤ، الأكبر في جنوب الصين، هو اسم يُطلق على الأنهار الغربية والشرقية والشمالية، التي تجري من ثلاثة اتجاهات مختلفة نحو المصب. نهر اللؤلؤ ليس طويلًا جدًّا، فأطول فروعه وهو النهر الغربي لا يتعدى ٢٢٠٠ كم. ولكونه يجري في نطاق شبه مداري حار ورطب، فإنه يتمتع بمعدل سقوط أمطار سنوي يبلغ أكثر من ١٠٠٠ ملم. وهذا يُسبب تدفُّقًا سنويًّا للنهر بمعدل ٣٣٦ مليار متر مكعب، جاعلًا إياه ثاني أكبر أنهار الصين من حيث تصريف المياه، بعد اليانغتسي.

ينبع النهر الغربي من يونان، ويجري عبر يونان وقويتشو وقوانتسي وقواندونغ. وخلال جريانه، يستقبل أنهارًا كبيرة مثل تشيانجيانغ وقويجانغ، مما يكسبه مزيدًا من المياه فيصبح نهرًا هادرًا، وذلك عندما يصب في نهر اللؤلؤ. ويتمتع نهرا نانبان وهونغشوي، على المجاري العليا لنهر تشيانجيانغ، بموارد غنية جدًّا للطاقة الهيدروليكية. وتخطط الحكومة المركزية لبناء ١١ محطة هيدروليكية على نهر هونغشوي في لوبوقه، وتيانشنغتشياو رقم ١ و٢، وبينغبان، ولونغتان، ويانتان، وداهوا، وبايلونغتان، وأوتان، وتشياوقونغ، ومضيق داتينغ. هذه المحطات لها قدرة تصميمية مُجتمعة تقدر بـ ١٣,١٣ مليون كيلوواط، وبإمكانها توليد أكثر من ٥٣ مليار كيلوواط/ساعة من الكهرباء سنويًّا. إنَّ محطات لوبوقه وتيانتشنغتشياو وداهوا الهيدروليكية في طور العمل حاليًّا، إذ توفر كميات كبيرة من الطاقة التي تحتاجها مناطق جنوب الصين خلال مسيرة تنميتها الاقتصادية.



مناظر طبيعية في قويلين، خاصة على ضفاف نهر ليجيانغ.

ويُسمّى نهر قويجيانغ، وهو رافد رئيس لنهر اللؤلؤ، نهرَ ليجيانغ أيضًا، ومنبعه قريب جدًّا من منبع نهر شيانغجيانغ، أحد فروع اليانغتسي. وبُنيت قناة تدعى «قناة لينغ» في أوائل أسرة تشين قبل أكثر من ٢٠٠٠ سنة؛ لربط المناطق على جانبي الأنهار. وتشكل هذه القناة منذ مدة طويلة ممرًّا مائيًّا رئيسًا يربط حوضي نهري اللؤلؤ واليانغتسي. وهناك كثير من الآثار التاريخية يمكن رؤيتها حتى اليوم في المنطقة.

إنَّ معظم المناطق الواقعة على طول نهر ليجيانغ هي غابات من القمم الكلسية التي تضيف كثيرًا من الجمال على المنطقة. ويمثل ركوب قارب في نهر ليجيانغ، من قويلين إلى يانغشوه تجربة رائعة تُمكّن المرء من رؤية أروع المناظر على طول النهر. فالجلوس على متن القارب، يوفر للإنسان فرصة التمتع بمياه صافية كالبلور، تحيطها المساحات والجبال الخضراء التي تنتشر بين جنباتها المساكن المُرتبة بشكل عجيب. وهناك بيت شعر صيني شائع يصف هذه الصورة البديعة بالقول: «النهر يشبه حزامًا حريريًّا أخضر، والجبال مثل جواهر من الزُمرّد». وقويلين من أشهر المناطق السياحية في الصين، إذ تستقبل سنويًّا ملايين السياح من شتى أنحاء العالم. حتى إنَّ كثيرًا من الناس يصفون المناظر الرائعة فيها بأنها «لا مثيل لها في الدنيا».

المنطقة الاقتصادية لدلتا نهر اللؤلؤ

تقع هذه المنطقة في الجزء الجنوبي الشرقي لقوانغدونغ، وفي المجرى الأسفل لنهر اللؤلؤ، وتجاور منطقتي هونغ كونغ وماكاو الإداريتين الخاصتين، وتواجه جنوب شرق آسيا عبر البحر، وتسمَّى «البوابة الجنوبية» للصين بفضل شبكة مواصلاتها المتطورة.

تتميز المنطقة الاقتصادية لدلتا نهر اللؤلؤ بمناخ حار ونظام ريّ متطور، وهي منطقة مكتظة بالسكان، مملوءة بالمدن والبلدات، وتعدُّ منذ القدم من أكثر مناطق جنوب الصين ثراءً، ويقوم المواطنون هناك باستغلال هذه المزايا الطبيعية في مهن مربحة، مثل تربية الأسماك في البِرك، وزراعة أشجار التوت، وتربية دودة القز عليها، وزراعة قصب السكر، وعدد من الفواكه شبه الاستوائية على الأراضي المرتفعة حول البِرك. وفي كل سنة، يقوم المزارعون بتعزيز حافات البِرك بتربة خصبة يستخرجونها من قاع البِرك نفسها، ويستخدمون مخلفات دودة القز وشرانقها وأوراق قصب السكر لإطعام أسماكهم، وبذلك تتشكل دائرة إيكولوجية متكاملة تدعى «زراعة البِرك». وينجم عن هذا محصول وافر ومستوى عالٍ من الفاعلية. ويمكن تربية دودة قز الحرير في هذه المنطقة الاقتصادية ما بين سبع إلى ثماني مرات سنويًا، ويجري تصدير معظم الحرير الخام، وهذا الأمر يعني فوائد اقتصادية كبيرة للمنطقة وسكانها.

لقد أسست الصين في عام ١٩٨٠م أربع مناطق اقتصادية خاصة، مُعلنةً بداية انفتاحها على الخارج. وتقع منطقتا شنتشن وتشوهاي الاقتصاديتان الخاصتان في منطقة دلتا نهر اللؤلؤ، وقد فُتحتا عام ١٩٨٥م أمام العالم الخارجي بوصفهما نطاقين اقتصاديين ساحليين. وتتمتع هاتان المنطقتان بفوائد عظيمة بفضل موقعيهما الجغرافيين المميزين، وقربهما من هونغ كونغ وماكاو. ونتيجة لهذه المزايا، بادرت عدد من المؤسسات الصناعية إلى تحويل قواعدها من هونغ كونغ وماكاو إلى شنتشن وتشوهاي. وقد جذبت المدينتان كميات هائلة من رأس المال الأجنبي، وكثيرًا من التقنيات والمعدات المتقدمة، إضافةً إلى الطرق الإدارية الحديثة والتكنولوجيا العالية. وفي المنطقة

الاقتصادية لدلتا نهر اللؤلؤ، أُقيمت مجموعة من مؤسسات التصنيع والمعالجة ذات الأيدي العاملة الكثيفة، مثل المنسوجات والملابس، ومعدات الاتصالات، والإلكترونيات، والأجهزة والمكائن الكهربائية، إلى جانب الألعاب، وهذا ما جعل المنطقة إحدى قواعد المنتجات المخصصة للتصدير، وخصوصًا البضائع الاستهلاكية والإلكترونية.



دلتا نهر اللؤلؤ، حيث الظروف الطبيعية الرائعة والمدن المزدهرة والاقتصاد المتطور.

أما مدينة قوانغتشو فتقع عند مصب نهر اللؤلؤ، وهي أكبر مدينة وميناء للتجارة الخارجية في جنوب الصين، ومركز اقتصادي مهم للبلاد. وتمثّل قوانغتشو نافذةً كبيرةً لانفتاح الصين على الخارج، لكونها المدينة التي تستضيف معرض الصين للواردات والصادرات، الذي يقام كل ستة أشهر (في الربيع والخريف).

تتمتع مدينة قوانغتشو بالأشجار دائمة الخضرة والأزهار الملونة طوال السنة، لذلك تدعى «مدينة الأزهار» في الصين. وفي المدينة، قطاع تجاري مزدهر وصناعات متطورة تأتي على رأسها المنسوجات، والصناعات الخفيفة، والمنتجات الغذائية، والأجهزة الإلكترونية الاستهلاكية، وتتمتع جميعها بمستوى متقدم. وفيها قطاعان مهمان أيضًا، وهما: تصنيع المكائن، وبناء السفن. وتشهد قوانغتشو تقدُّمًا ملحوظًا في اقتصادها، وتحولات ملموسة في بنائها الحضري منذ تبنِّي الصين سياسة الإصلاح والانفتاح.

أما منطقة شنتشن الاقتصادية الخاصة فتقع شمال مصب نهر اللؤلؤ، وتغطي مساحة ٣٢٧,٥ كيلومتر مربع. ويفصل نهرُ شنتشن المدينة عن شبه جزيرة كاولون في هونغ كونغ. وتقع منطقة دلتا نهر اللؤلؤ في ظهر منطقة شنتشن الاقتصادية التي تواجه هونغ كونغ وماكاو في الجنوب. ومنذ تأسيسها في عام ١٩٨٠م تطورت شنتشن من بلدة حدودية إلى مدينة كبيرة حديثة. وهي أيضًا مدينة مهاجرين، ولدى سكانها وعي قوي بالأعمال التجارية واستعداد للتنافس. ويتميز المناخ الثقافي للمدينة بطابع الانفتاح والتسامح والإبداع.

لقد ساعدت سياسة الإصلاح والانفتاح في الصين على دفع التطور والنمو في المنطقة الاقتصادية لدلتا نهر اللؤلؤ. وتشمل هذه المنطقة أكثر من ١٠ مدن وبلدات، مثل: قوانغتشو، وشنتشن، وفوشان، ودونغقوان، وتشوهاي، إضافةً إلى منطقتي هونغ كونغ وماكاو الإداريتين الخاصتين، إذ تبلغ مساحة المنطقة ٤٠,٠٠٠ كم٢، ويصل عدد سكانها إلى ما بين ٢٣ - ٢٤ مليونًا. وهي أكبر منطقة اقتصادية حضرية في الصين، وتتميز بميل قوي تجاه السوق والعولمة.

تبرز منطقة دلتا نهر اللؤلؤ الاقتصادية بتوجهها نحو التصدير، وبالاستفادة من موقعها الجغرافي الفريد المجاور لهونغ كونغ، لقد استغلت هذه المنطقة

تميُّز المعلومات وكثرة المدن التي يقطنها مغتربون صينيون عائدون من الخارج، وهذا ما ساعدها على جذب كميات كبيرة من رأس المال الأجنبي، وكثير من القطاعات التصنيعية التي نقلت قواعدها إليها، من هونغ كونغ، وماكاو، وتايوان. ونتيجة لذلك ظهرت لديها زيادة واسعة في المؤسسات الموجهة للتصدير، إذ أصبحت عملية «ثلاثة + واحد» العمود الأساسي لقطاعاتها الموجهة للتصدير. وهذه العملية تعني: تصنيع مواد يوفرها الزبائن، وتصنيع نماذج يقدمها الزبائن، وتجميع أجزاء آليات يقدمها العملاء، والتجارة التعويضية.

في بداية تأسيس منطقة دلتا نهر اللؤلؤ الاقتصادية ظهر فيها أولًا صناعات كثيفة العمالة، مثل: الملابس، والألعاب، والأجهزة المنزلية، وبعض القطاعات التصنيعية. لكن التعديل والتطوير المستمرين للهيكل الصناعي خلال السنوات الأخيرة، ساعدا المنطقة على تطوير سريع لمنتجات عالية التكنولوجيا. وساهم ذلك في ظهور صناعات أساسية، مثل الدوائر المتكاملة لأشباه الموصلات، والاتصالات عبر تقنيات الموجات الدقيقة، ومعدات اتصالات المحمول، والأجهزة الإلكترونية الدقيقة، ولاسيما الكومبيوتر، والهواتف المحمولة والكينسكوب الملون لجهاز التلفزيون.

تايوان وهاينان

جزيرتا تايوان وهاينان هما المقاطعتان الصينيتان الوحيدتان الواقعتان خارج بر الصين الرئيس. وتشمل تايوان جزيرة تايوان، والجزر المجاورة لها بنغهو، ودياويوى، وغيرها. وتايوان هي أكبر جزيرة في الصين، فمساحتها تبلغ ٣٦ ألف كم٢، ويقطنها أكثر من ٢٢ مليون نسمة.

تمتد هذه الجزيرة التي تشبه المغزل من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. وهناك سلسلة جبال تايوان، التي يتجاوز معدل ارتفاعها ألفي متر، تخترق الجزيرة، وتمثِّل خطًّا فاصلًا. والأراضي الواقعة غرب هذا الخط الفاصل منبسطة نسبيًّا، وفيها سهل ساحلي غريني، يحتضن عددًا من مدن تايوان المتوسطة والصغيرة الحجم.

تتمتع تايوان بمناخ معتدل ورطب، وتشهد جميع أجزائها، عدا المناطق الجبلية، معدل درجات حرارة عند ٢٠ درجة مئوية، ومعدل سقوط أمطار يصل إلى ٢٠٠٠ ملم، أو أكثر. وفي هوشاولياو، في الجزء الشمالي الشرقي لجزيرة تايوان، يصل معدل سقوط الأمطار إلى ٦٥٧٢ ملم، وهو الأعلى في الصين. وتتميز جزيرة تايوان بغطاء نباتي كثيف، إذ ينتشر الغطاء النباتي على ٧٠٪ أو أكثر من الجزيرة. والأرز وقصب السكر هما المحصولان الرئيسان للجزيرة التي تصدِّر منهما كميات كبيرة. لذلك تحمل تايوان لقب «مستودع الحبوب» و«مخزن السكر». وتزرع تايوان وتنتج فواكه شبه استوائية، مثل: الكمثرى، والأناناس، والموز، والبرتقال.

طوّرت تايوان صناعاتها الخفيفة والنسيجية، بواسطة تبنيها الإستراتيجية الصناعية الموجهة للتصدير، وبالاستفادة من الجولة الثانية للتحوّل العالمي إلى الصناعات ذات العمالة الكثيفة بعد ستينيات القرن الماضي، وأقامت «قواعد تصنيع منتجات تصديرية» في مدن مثل: كاوشيونغ، ونانتسي، وتايتشونغ، ونجحت في جذب الاستثمارات الأجنبية. وفي السبعينيات، حوّلت تايوان تركيزها إلى تطوير البنية التحتية، كالطرق والجسور والسكك الحديدية والمطارات والمجالات الأخرى، إضافةً إلى تعزيز قطاعات الحديد والصلب، والبتروكيماويات، وصناعة السفن، والطاقة الكهربائية، والمواد الجديدة.

وهذا ساعدها كثيرًا على تسريع تنميتها الاقتصادية، وحققت تايوان من عام ١٩٦٣م إلى عام ١٩٧٢م نموًّا اقتصاديًّا سنويًّا بمعدل ١٠٪. وسعت تايوان في الثمانينيات إلى مزيد من تعديل هيكلها الصناعي من خلال زيادة المنتجات ذات التكنولوجيا العالية، وإقامة مجمع شينتشو العلمي، وهي خطوة مهمة ساندت في تعزيز صناعاتها ذات التكنولوجيا العالية.

لقد ظلَّت تايوان منذ القدم جزءًا لا يتجزأ من الصين، لكنها ما زالت منفصلة عن بر الصين الرئيس لعدة أسباب، ويتطلع المواطنون على كلتا ضفتي مضيق تايوان إلى تحقيق إعادة التوحيد السلمي مع الوطن الأم في أقرب وقت ممكن.

أما مقاطعة هاينان فتتكون من جزيرة هاينان وجزر بحر الصين الجنوبي، وهاينان هي أكبر جزيرة في الصين بعد تايوان، إذ تبلغ مساحتها ٣٤ ألف كم٢، وتواجه شبه جزيرة ليتشو في قوانغدونغ شمالاً عبر مضيق تشيونغتشو الذي يربط هاينان ببر الصين الرئيس، ويبلغ عرضه ١٨ كيلومترًا تقريبًا. وهذا المضيق هو ممر مائي أيضًا بين خليج بيبو وبحر الصين الجنوبي. وفي المناطق البحرية الواسعة شرق هاينان وجنوبها عدد من الجزر الصغيرة والأجرف المخفية والمناطق البحرية الضحلة، وأكثر من ٢٦٠[١] جزيرة تابعة للصين تسمَّى مجتمعة بجزر بحر الصين الجنوبي. ومن الناحية الجغرافية، يمكن تقسيم هذه الجزر إلى ٤ مجموعات، وهي: دونغشا، وشيشا، وتشونغشا، ونانشا، إضافةً إلى جزيرة هوانغيان شرق مجموعة جزر تشونغشا. ويقع حيد تسنغمو، أقصى جنوب الصين، على درجة ٤ من خط العرض شمالاً.

تقع هاينان في المنطقة الاستوائية، وتتمتع بجو دافئ طوال السنة، ومناخها ملائم لزراعة كثير من المحاصيل الاستوائية. وبعد عدة سنوات من التطور

(١) وردت هذه المعلومة في جزء سابق بعدد مختلف، فصل (لمحة عن جغرافية الصين)، ص٧.

الزراعي في هاينان، ظهر أكثر من ٤٠٠ ألف هكتار من الأراضي الزراعية للمحاصيل الاستوائية، التي شملت: المطاط، وجوز الهند، والفلفل، والكاتشو، والسيترونيلا، والسيزال، والتنبول، والأناناس، والقهوة، ونخيل الزيت. وبفضل التطور السريع لصناعة المطاط، أصبحت هاينان أكبر قاعدة لإنتاجه في الصين، إذ تسهم في تقديم أكثر من ثلثي الإجمالي الوطني. أما المناطق المائية حول جزر بحر الصين الجنوبي فهي مصايد استوائية مهمة. ويعد خام الحديد، المُستخرج من شيلو، أحد المنتجات الرئيسة لهاينان، والاحتياطي المخزون منه هناك ليس كبيرًا فحسب، بل هو أكثر من ٣٠٠ مليون طن، ومن نوعية ممتازة تحتوي على ٦٠٪ من مكونات الحديد، إلى جانب ذلك فإنه يوفر نوعية جيدة من الحديد ومشتقاته للمؤسسات الكبيرة للحديد والصلب.

لقد كانت هاينان في الماضي تابعة إداريًا لمقاطعة قوانغدونغ، ثم قررت الحكومة المركزية عام ١٩٨٨م تحديدها مقاطعة هاينان، وأصبحت هايكو حاضرة لها. وبذلك أصبحت هاينان منطقة تطوير اقتصادي خاصة، وهي الأكبر في الصين، وهذا الأمر دفع اقتصادها إلى مستويات عالية.



الشمس والشواطئ الرملية الناعمة وأشجار جوز الهند تشكل منظراً استوائياً في هاينان.

هونغ كونغ وماكاو

تقع منطقة هونغ كونغ الإدارية الخاصة شرق مصب نهر اللؤلؤ، وتنقسم إلى جزيرة هونغ كونغ، وشبه جزيرة كاولون، والأقاليم الجديدة، وتبلغ مساحتها ١,٠٩٨ كم٢، وعدد سكانها أكثر من ٦,٦ مليون نسمة، ٩٨٪ منهم صينيون. وتشكل المناطق البحرية بين جزيرة هونغ كونغ وشبه جزيرة كاولون مرفأً بحريًّا طبيعيًّا مثاليًّا بإمكانه استقبال كثير من السفن ذات حمولة ١٠ آلاف طن. وتعد هونغ كونغ فقيرة الموارد؛ لأنها منطقة صغيرة وعدد سكانها كبير، وتستورد معظم الوقود والمواد الصناعية الخام والمواد الغذائية التي تحتاجها، حتى إنها تحصل على حاجتها من مياه الشرب من بر الصين الرئيس. ومن زاوية أخرى تؤدي هونغ كونغ دورًا حيويًّا في الاقتصاد العالمي، فالتجارة والمال والسياحة والتصنيع قطاعات رئيسة فيها، وهي من مراكز المال والتجارة الحرة العالمية البارزة. وهناك كمية كبيرة من البضائع التي تصدر من بر الصين الرئيس أو تستورد له، تمر عبر هونغ كونغ.

احتلت بريطانيا هونغ كونغ بعد حرب الأفيون عام ١٨٤٠م، ثم عادت إلى أحضان الوطن الأم في الأول من يوليو عام ١٩٩٧م، وفي الوقت نفسه، تأسست رسميًّا منطقة هونغ كونغ الإدارية الخاصة، وتطبق الحكومة الصينية إزاءها سياسة «دولة واحدة ونظامان»، وبموجب هذه السياسة تمكنت هونغ كونغ من المحافظة على نظامها الاجتماعي والاقتصادي الحالي، ونمط حياتها وقوانينها المحلية دون تغيير.

أمَّا ماكاو فتقع على الجانب الجنوبي لمصب نهر اللؤلؤ، وتتكون من شبه جزيرة ماكاو، وجزيرتين صغيرتين، تبلغ مساحتها ٢٥ كم٢، وسكانها أكثر من ٤٠٠ ألف نسمة. يعتمد اقتصاد ماكاو على قطاع السياحة والقمار، لكنها

شهدت في الآونة الأخيرة نهوض عدة صناعات وأعمال تجارية وسياحية، وهذا الأمر أكسبها قوةً دفعت اقتصادها إلى الأمام. احتلت البرتغال ماكاو في عام ١٥٥٠م، ثم عادت إلى الوطن الأم في ٢٠ ديسمبر عام ١٩٩٩م، وحددت الحكومة المركزية ماكاو منطقة إدارية خاصة أيضًا، وتنطبق عليها السياسة نفسها المتبعة في هونغ كونغ؛ أي: «دولة واحدة ونظامان». ولقد استأنفت الصين ممارسة سيادتها على هذه المنطقة وفقًا للبيان المشترك الموَّقع بين حكومتي الصين والبرتغال في ١٣ أبريل عام ١٩٨٧م.



هونغ كونغ أحد مراكز التجارة الحرة المشهورة في العالم.

المناطق الداخلية الشمالية الغربية

تشمل مقاطعة قانسو والمناطق ذاتية الحكم: شينجيانغ لقومية الأيغور، ونينغشيا لقومية هوي، ومنغوليا الداخلية. وهي مناطق جافة بمعدل أمطار سنوي يصل إلى نحو ٢٠٠ ملم. كما أنها شاسعة المساحة لكنها قليلة السكان، وذات جوٍّ جاف، وبها القليل من الحياة النباتية.

وفي هذه المناطق مزايا خاصة رائعة، مثل الصحاري الشاسعة، وغوبي وتاكلاماكان، ومساحات المراعي الغنية المملوءة بالأبقار والأغنام وأنواع الماشية الأخرى، وفيها أيضًا أبناء الأقليات القومية بتقاليدهم وخصائصهم الرائعة، وهي مزايا تجذب ملايين السياح والزوَّار من الداخل والخارج. وتعدُّ المنطقة الشمالية الغربية مرابع البدو الصينيين الذين يتمتعون بتاريخ طويل في تربية الأبقار والأغنام، وهذه المناطق غنية أيضًا بالموارد الطبيعية مع إمكانيات ضخمة للتنمية.

صحاري واسعة

تُقدَّر مساحة الأراضي الصحراوية الصينية بنحو ٧٠٠,٠٠٠ كلم٢، أو ١,٢٨ مليون كلم٢، إذا جرى احتساب صحراء غوبي التي تمتد مساحتها لأكثر من ٥٠٠,٠٠٠ كلم٢. تحتل المنطقة الشمالية الغربية الجافة مساحة كبيرة من الصحراء، تضيف نحو ٧٠ - ٨٠٪ إلى الإجمالي الوطني. وتشمل الصحاري الرئيسة في شمال غرب الصين تاكلاماكان، وقربان تونكوت في شينجيانغ، وصحاري باديان جاران، وتينجر في منغوليا الداخلية، وهناك أيضًا صحراء كومتاغ على حدود شينجيانغ وقانسو.

وليست صحراء تاكلاماكان الأكبر في الصين فحسب، بل هي أيضًا إحدى أكبر الصحاري العالمية، وربما تأتي الثانية مساحة في العالم. وتقع في حوض تاريم في الجزء الجنوبي من شينجيانغ، وتمتد على مساحة ٣٣٧,٠٠٠ كلم٢، أي نحو نصف المساحة الصحراوية في الصين. وتاكلاماكان هي المنطقة الأكثر جفافًا في الصين، إذ تشهد تساقط أمطار سنوي بأقل من ٥٠ ملم. وهي مغطاة بتلال رملية عالية بأشكال مختلفة، وبعض الجبال العارية المنخفضة موزعة في الجزء الغربي من الصحراء. وتتغير أشكال التلال الرملية وأحجامها بفعل الرياح القوية على مدار السنة، فتبدو مثل أمواجِ البحر إذا نظر المرء إليها من الجو. وتتميز هذه الصحاري بظروف قاسية جدًّا، وهذا يعني استحالة العثور على نباتات أو حيوانات كبيرة فيها. والمنطقة حارة جدًّا خلال الصيف، أمّا في الشتاء فتتطاير الرمال الصفراء بعنف لتغطي السماء. وتعني كلمة تاكلاماكان في الأيغورية: «لن تستطيع الخروج حالما تطأ قدماك الصحراء».



صحراء باديان هي أعلى جبل رملي، وتسمى «جو مو لا نغما الصحراء».

تقع صحراء أخرى في حوض جونغار، في الجزء الشمالي من شينجيانغ، وتُعرف باسم قربان تونكوت، وهي ثاني أكبر صحراء في الصين، والظروف الطبيعية في هذه الصحراء أفضل قليلًا من ظروف سابقتها تاكلاماكان، وذلك بفضل وجود غابات أشجار الهالوكسيون أموديندرون.

أما الصحاري في الجزء الشرقي، مثل صحراء موآس وتينجر، فهي أصغر حجمًا وظروفها الطبيعية أفضل.

وتتمتع هذه الصحاري بمعدل تساقط أمطار سنوي جيد نسبيًّا، وبفضله تنتشر نباتات خضراء مقاومة للجفاف، مثل الأعشاب والأرطماسيا. وفيها أيضًا أحراش وشجيرات تتوزع هنا وهناك، وحول التلال الرملية المنخفضة، حيث توجد المياه الكافية لتبقيها على قيد الحياة. وبرغم كل شيء، تبقى المياه قليلة في تلك المناطق، إذ تُشكّل البِرك والبحيرات مصدر مياه نادرًا وشحيحًا للرعاة.

في هذه الصحاري عدد من بقايا المدن الأثرية مدفونة تحت الرمال. ولتقفِّي آثار المدن التاريخية القديمة والقطع الثمينة المدفونة هناك، توجَّه المستكشف السويدي سفين هايدين، وكثير من المغامرين المحليين والأجانب، توجَّهوا أيضًا إلى تلك الصحاري بحثًا عن تحف ثمينة قد يعثرون عليها في كنوز تاكلاماكان. وبفضل الجفاف الشديد للأجواء هناك، ما تزال كثير من القطع الأثرية، مثل: الرقائق الخيزرانية، والورق، والأواني المنزلية، وكذلك الجثث المدفونة في مقابر المدن الأثرية، محفوظة بشكل جيد. وتحظى هذه القطع الأثرية الثمينة بأهمية بالغة؛ لأنها تُلقي الضوء على حياة الناس القدامى، وتساعد في دراسة تغيُّرات المناخ خلال فترات متعاقبة.



شجر الحور (هويانغ) في تاكلاماكان نموذج للجمال وقوة الحياة.

إنَّ أكثر ما يجذب الناس إلى هذه الصحاري هو بحيرة لوب نور، في النهاية الشرقية لصحراء تاكلاماكان، ومدينة لولان الأثرية المجاورة لها، المذكورة في التاريخ الصيني المبكر، والتي اختفت في القرن الحادي عشر تقريبًا. ثم اكتُشِفَت أطلالها وآثارها، وأثار اكتشافها إعجاب العلماء المحليين، كما جذب علماء مختصين من الخارج.

ولا تنحصر أهمية هذه الصحاري في التاريخ العريق فقط، بل هي غنية بالموارد الطبيعية أيضًا. تحوي صحاري تاكلاماكان وقربان تونكوت احتياطيات ضخمة للنفط والغاز الطبيعي. ففي خمسينيات القرن العشرين، اكتشف العلماء الصينيون النفط في كاراماي، في طرف صحراء قربان تونكوت. وبعد ذلك، اكتشفوا احتياطيًّا كبيرًا للنفط والغاز في تاكلاماكان، التي تحتوي على كمية من النفط تصل إلى أكثر من ١٠ مليارات طن، وتريليون متر مكعب من الغاز الطبيعي. ولذلك، تُعد الصحاري مصدرًا مهمًّا للطاقة في الصين. لقد بُذلت جهود مكثفة للتنقيب عن النفط واستغلال الموارد في تاكلاماكان، وبُنيَ طريق يمر عبر الصحراء، ويسير العمل في مجال استخراج النفط والغاز الطبيعي على قدمٍ وساق.

إنَّ استكشاف موارد الصحاري واستغلالها عمل صعب ودقيق، لأنَّ الصين تواجه مشكلة حقيقية وهي التصحُّر. فلقد زحفت الرمال نحو كثير من الأراضي الزراعية والمدن والبلدات الواقعة على حافة الصحاري. وإلى جانب المدينة المعروفة لولان، هناك مدينة مهجورة تدعى تونغوان، كانت عاصمة قديمة لأسرة شيا الغربية على هضبة أوردوس، وهي مثال على تأثير زحف الرمال على المدن والبلدات. كانت هذه المدينة، في الماضي، محاطةً بالمراعي الخصبة والجميلة، لكنها تحوَّلت إلى أراضٍ رملية قاحلة خلال فترة أسرة سونغ قبل نحو ١٠٠٠ سنة.



صحراء تاكلاماكان تحتوي على موارد وافرة من النفط والغاز.

إنَّ مشكلة التصحر هذه ألحقت ضررًا كبيرًا بالاقتصاد الوطني للصين وبحياة السكان المحليين. وغطّت بحار الرمال كذلك السكك الحديدية والطرق الحديثة، وكذلك الأراضي الزراعية التي تَلِفت جميعُ مزروعاتها ومحاصيلها. ولمواجهة هذه المشكلة، أجرى العلماء سلسلة من الدراسات والبحوث، وأسسوا مراكز الأبحاث العلمية في بعض المناطق، بهدف إيجاد السبل الكفيلة بمنع

مزيد من التصحر. على سبيل المثال، بهدف كبح الأضرار التي لحقت بسكك حديد باوتو - لانتشو، أجرى العلماء أبحاثًا حول سبل إيقاف زحف الرمال، وذلك بزراعة الأشجار والنباتات، وأسسوا نظامًا شاملًا لمنع تفاقم هذه الظاهرة، وسعوا إلى استخدام ذلك النظام لتثبيت الكثبان الرملية على امتداد النهر الأصفر في نينغشيا. وقد نجحت جهود العلماء في إيقاف زحف الرمال وضمان طريق سلس على السكك الحديدية، وهذا ما أدى إلى إشادة المجتمع الدولي بالنجاح الذي أحرزه العلماء الصينيون في أبحاث كبح التصحر.

مروج رائعة وخصبة

إلى جانب الصحاري الممتدة، يتمتع شمال غرب الصين أيضًا بمساحات واسعة من أراضي المروج الخضراء الزاهية التي تنتشر على مساحة ٣٠٠ مليون هكتار. وتمثل أراضي منغوليا الداخلية الخصبة ثلث الإجمالي الوطني، وتوفر نوعية ممتازة من الأعشاب، وتهيئ ظروفًا مثالية لتطوير الرعي. وهي إحدى القواعد الأساسية لتربية المواشي ومنتجاتها في الصين.

أما الأراضي في شرق المنطقة الجبلية الغربية وجنوبها من جبال شينغآن الكبرى وشمال جبل يِنشان وسور الصين العظيم في شمال شنشي إلى الحدود الصينية المنغولية، فكلها سهول عالية. وعند النظر إليها من بعيد تبدو هذه السهول كالروابي، ولكنها منبسطة عند مشاهدتها من قرب، باستثناء بعض الجبال منخفضة الارتفاع في النهاية الشرقية. وإذا نظر المرء من نوافذ الطائرة، فسيرى بحرًا واسعًا من الأراضي المُعشبة، التي تبدو مثل أمواج خضراء تتهادى. وهناك أغنية شعبية عمرها أكثر من ١٤٠٠ سنة، هي أفضل

ما يصف المروج الخضراء في منغوليا الداخلية، تقول: «الجبال المُكللة بالغيوم ممتدة، تنظر إلى نهر تشيلي وهو يمر أمامها، وقبة السماء الكبيرة تغطي المروج الخضراء. السماء العظيمة زرقاء براقة، والبرية الواسعة لا حدود لها. الريح تداعب العشب الأخضر، والمراعي مملوءة بالمواشي الوديعة».

تشكل مروج هولون بير وشيلين قول بمنغوليا الداخلية مراعي مشهورة في الصين، وفيها أفضل أنواع الأعشاب، وتعدُّ موطنًا لأكثر القطاعات تطورًا في مجال تربية الماشية وصناعة منتجاتها. وهي أيضًا موطن الخيول المنغولية القوية وشديدة الصلابة، المعروفة بقدرة تحمُّلها، إذ إنها نشأت وترعرعت وتدرَّبت في ظروف قاسية على مروج زاهية الخضرة. تُربَّى الخيول المنغولية وتُروَّض بشكل جيد، ولكنها خيول شجاعة، ومثالية في القتال وهي مشهورة عالميًا. أما جواد سانخه الأحمر الأرجواني، فهو نسل مُحسّن من الخيول المنغولية، ويتميز بأنه أطول منها وأقوى و «أكثر وسامة»، وقادر على قطع مسافات أطول وحمل أثقال أكبر.

تشكل الأغنام ثروة حيوانية رئيسة في مروج منغوليا الداخلية، وعلى رأسها الأنواع المنغولية التي تعد النسل الرئيس، وتجد إقبالًا كبيرًا نظرا لجودة لحومها وأصوافها. وتأتي في المقدمة خراف أوجوموتشين، ذات اللحوم الطيبة والقيمة الغذائية العالية، وهي الخيار الأفضل لطبق «لحم الضأن المسلوق»، الذي يعد طبقًا نموذجيًا لسكان شمال الصين. وخراف تان وسانبي كلاهما نوع مُحسّن من النسل المنغولي، وتتميز بجودة أصوافها وكثرتها، وتُصنع منها معاطف الفرو الناعمة والدافئة، وتشكل جزءًا مهمًا من صادرات الصين، وتحظى بتقدير عالٍ من المستهلكين.



مروج هولون بير الخضراء في منطقة منغوليا الداخلية الذاتية الحكم، حيث المراعي اليانعة.

تقع مروج آلاشان الخضراء في أقصى الجزء الغربي من هضبة منغوليا، وهي منطقة داخلية بعيدة عن البحر، لذا يسودها مناخ جاف وظروف طبيعية قاسية، وليس فيها سوى شجيرات متناثرة. وربما تكون الجِمال هي الفقاريات الوحيدة التي يمكنها التكيف مع ظروف الطبيعة القاسية، مثل الجمل الصيني ذي السنامين، الذي يمكنه التأقلم بسهولة مع البيئة القاسية، وهو واسطة التنقل الرئيسة في الصحاري الممتدة بلا نهاية.

يسكن في هذه المروج بشكل رئيس أبناء القومية المنغولية، حيث يوجد على هذه الأراضي الخضراء أكثر من نصف مجموع أبناء قومية منغوليا (يصل تعدادهم إلى أكثر من ٣,٤ ملايين)، بينما ينتشر البقية في أجزاء أخرى من شمال غرب الصين. ويعدُّ المنغوليون من أقدم الأقليات القومية في الصين، وهم معروفون بقوتهم وشجاعتهم. ومن نهاية القرن الثاني عشر حتى بداية

القرن الثالث عشر، تمكن تيموجين (١١٦٢م – ١٢٢٧م)، وهو رجل من أسرة أرستقراطية، من توحيد جميع القبائل الأخرى على هذه المروج، وأسس مملكة منغولية موحدة. واختير لاحقًا «داهان» حاكمًا على منغوليا بأكملها، وبات معروفًا بـ«جنكيز خان». وتمكن خلفاؤه من الإطاحة بحكام أسرتي جين وسونغ الجنوبية الصينيتين، وأسسوا إمبراطورية منغولية - أسرة يوان - وأقاموا عاصمتهم في دادو، بكين حاليًا.

تمتاز القومية المنغولية بتاريخ طويل وثقافة نابضة بالحياة، وقد انبثق كثير من العلماء والباحثين من أبنائها. وتتناقل أجيال هذه القومية الأعمال العظيمة من الآداب والفنون. وما كتاب (تاريخ منغوليا السري)، الذي كُتِب في منتصف القرن الثالث عشر، إلا نموذج تمثيلي يسجل تاريخ هذه القومية. إلى جانب ذلك، هناك العقاقير التقليدية المنغولية، التي تمزج بين الخصائص الطبية والجغرافية لهذه القومية البدوية، وهي كذلك معروفة بعلاجها المرتبط بالحِمْية، وأساليب علاج أمراض العظام والإصابات، وتتمتع بموقع متقدم بين العقاقير الصينية التقليدية. وللمنغوليين تقاليدهم الخاصة، وأغانيهم ورقصاتهم الحيوية والجريئة والفريدة من نوعها.

يعيش المنغوليون في خيَم مدورة (يورت)، وعادة ما تكون بقطر ٤ أمتار وارتفاع ٢ متر. وفيها مَناور، أو فتحات للإنارة والتهوية، ويُدعم السقف بهيكل خشبي، ويحتل الموقد وسط الخيمة ليساعد على بقائها دافئة. ويمكن تفكيك الخيم المنغولية بسهولة، ونقلها، وإعادة نصبها مرة أخرى في مكان آخر تبعًا لتحرّك الرعاة بين حين وآخر بحثًا عن الماء والكلأ.

أما مهرجان نادام، الذي يُقام في يوليو أو أغسطس من كل سنة، فهو أكبر مهرجان تقليدي لقومية منغوليا. وكلمة «نادام» في اللغة المنغولية تعني «المتعة»

أو «اللعب». في هذا المهرجان يرتدي جميع الرعاة من قومية منغوليا، صغارًا وكبارًا، أفضل ملابسهم ويقطعون مسافات طويلة، حاملين المواد الغذائية والبضائع للاحتفال بالمهرجان. وتزهو المراعي بالحياة، ويحظى الرعاة بالفرح والمرح. وتعد المصارعة من أشهر الرياضات في مهرجان نادام، إذ يرتدي المتصارعون ملابس تقليدية ويرددون الأغاني خلال منافسات اللعب والترفيه، ثم يتبارون في حلبات المصارعة أو في مضامير سباقات الخيول القوية، التي تمثّل رياضة مشهورة في المهرجان أيضًا.



مهرجان واحتفالات نادام الأكثر انتشارًا بين الناس على مروج هولون بير، حيث يحتفل الناس بعيدهم التقليدي.

ومنغوليا الداخلية هي أول منطقة بحكم ذاتي لأقلية قومية في الصين. ومنذ تأسيس جمهورية الصين الشعبية في عام ١٩٤٩م شهدت المنطقة

تطورات مهمة على مستوى حياة الرعاة. وانتقل أغلب أبناء قومية منغوليا من حياة الرعي والترحال إلى الحياة المستقرة. وتقدم الحكومة المركزية مساعدات بشتى الأنواع للرعاة لتحسين حياتهم ومراعيهم، وأساليب تربية مواشيهم، وهذا الأمر أسفر عن زيادة في الإنتاج ونوعيته. حاضرة المنطقة هي هوهيهوت، وتقع عند سفح جبل يِنشان، وقد تطورت وأصبحت مدينة حديثة مزدهرة، فيها كثير من البنايات الشاهقة.

الزراعة في الواحات

تمتد في مناطق شمال غرب الصين صحاري قاحلة، أبرزها تاكلاماكان وغوبي كما أشرنا سابقًا. ولكن الصحاري لا تشكل سوى جزء فقط من الإقليم. إذْ تتكون المنطقة أيضًا من عدد من الجبال العالية، مثل جبل تشيليان في قانسو، وجبال تيانشان، وكونلون، وألتاي في شينجيانغ، وهي بمعدل ارتفاع ٢٠٠٠ متر عن مستوى سطح البحر. وهذه الجبال هي حواجز طبيعية تعترض التيارات الهوائية الرطبة، وبذلك تشهد المنطقة هطول أمطار أكثر من المناطق الأخرى في الإقليم، فتنعم بعض مناطق الجبال بمعدل أمطار سنوي يصل إلى ٥٠٠ – ٦٠٠ ملم، ويساوي تقريبًا معدل الأمطار في شمال الصين. وبفضل تمتع الجبال بدرجات حرارة منخفضة ورطوبة عالية في الهواء، فإنها تصبح مثالية لنمو الأشجار والأعشاب، وتكون مغطاة بالغابات أو المراعي النضرة. وتشهد الجبال العالية تساقط الثلوج بدلًا عن الأمطار. وبسبب استمرار هذه الظاهرة لآلاف السنين، تراكمت طبقات سميكة من الثلوج، وكوَّنت المسطحات أو الأنهار الجليدية، التي تغذي الأنهار. ومع أنَّ البيئة قاسية جدًّا في المناطق الجافة

الواسعة، إلا أنَّ الواحات ذات كثافة سكانية عالية، وفيها شبكة طرق متشعبة، وتنتشر فيها أيضًا بساتين الفواكه وحقول الخضرة والأزهار.

وتقوم الأقليات القومية التي تعيش بالقرب من البحيرات بزراعة القمح والحبوب الأخرى، وتطور عمليات البستنة. وتشتهر مناطق شمال غرب الصين بإنتاج أنواع ممتازة من الفواكه، مثل: عنب «مانايزي» الخالي من البذور، والشمام المعطر الحلو.

وتقع مدينة تولوفان أو توربان على بعد ١٨٠ كلم عن أوروموتشي، وهي حاضرة منطقة شينجيانغ التي يتمتع فيها الأيغور بحكم ذاتي، وهي مشهورة بالعنب والشمام اللذين يزرعان وينموان في توربان، ويحتويان على نسبة سكر عالية ويتمتعان بطعم لذيذ مميز. وهذه الفواكه التي تنمو في الصحراء الجافة والحارة لا تحظى بإقبال كبير من الصينيين فحسب، بل هي مرغوبة ومفضلة في جميع أنحاء العالم أيضًا.



الجبال الجليدية تؤدي دوراً مهماً في تغذية الأنهار وريّ زراعة الواحات الصحراوية.

وحوض توربان هو ثاني أدنى المناطق في العالم، وأدنى نقطة فيه هي بحيرة آيدنكول، عند ١٥٥ مترًا تحت مستوى سطح البحر، وهذا الحوض جاف على مدار السنة مع معدل أمطار سنوي أقل من ١٠ ملم، ومعدل حرارة عالٍ يراوح بين ٣٧ و٣٨ درجة مئوية في الصيف. وسمى حوض توربان «أرض النار»، ولكن في أطراف هذا الحوض توجد كثير من البحيرات التي تغذّيها أنهار جليد جبل تيانشان.

ومن أبرز المواقع طرافة في توربان هو موقع ريّ كانير أو كاريز (بئر أرتوازية)، وتُستخدم فيها طريقة فريدة لتحويل المياه، ربما تكون أكبر نعمة لسكان الصحراء. لقد اخترع السكان المحليون هذه الطريقة منذ أكثر من ٢٠٠٠ سنة؛ وذلك من أجل الاستغلال الأمثل لمصادر المياه المحدودة وتقليل التبخر. فالقنوات الموجودة تحت الأرض والمبنية في صحراء غوبي، تحوِّل المياه إلى البساتين والحقول، مع وجود نقاط معينة في فواصل محددة تعمل بوصفها محفزات لإدامة تدفق المياه. وينزل الناس هناك في كل عام إلى تلك النقاط أو القنوات ليزيلوا الطمي والوحل منها ومن فوهة البئر. وإذا رأى المرء صفًّا منتظمًا من أكوام التراب في غوبي، فهذا يعني وجود آبار كانير تحت الأرض.

قنوات كانير واسعة الانتشار في توربان، إذ يوجد هناك أكثر من ١٠٠٠ قناة تحت الأرض، ويصل إجمالي طولها إلى أكثر من ٣٠٠٠ كلم، تستخدم ٦٠٠ مليون متر مكعب من المياه سنويًّا، وتروي ٨٠٪ من الأراضي الزراعية.

وتحتوي مناطق شمال غرب الصين على واحات أخرى، مثل الواحات في تشانغيي، ووُوي، وجيوتشيوان، ودونهوانغ في قانسو، وشيختسه، وكورلا، وأكيسو، وكاشي (كاشغر)، وهيتيان في شينجيانغ.

ويعيش معظم أبناء قومية الأيغور في شينجيانغ، وهم أكبر أقلية قومية في الصين بعد قوميتي تشوانغ وهوي. ويبلغ تعداد أبنائها ٦ ملايين نسمة، ويتمركزون حول البحيرات في جنوب شينجيانغ. والأيغوريون حاليًّا هم أحفاد الأيغور القدامى المختلطين مع هان وقوميات أخرى في شينجيانغ، ويمتهنون الزراعة بشكل أساسي، وخصوصًا زراعة محاصيل القمح، والأرز، والذرة، والقطن، والفواكه المختلفة.



بئر كانير في توريان في منطقة تينجيانغ الذاتية الحكم لقومية الأيغور.

يبرع الأيغوريون في التجارة أيضًا، وقد مرّ طريق الحرير القديم بشينجيانغ، واكتسب كثير من الأيغوريين خبرات ممتازة في التجارة عبر عدة أجيال. وإضافةً إلى منتجات الحقول، فهم ينتجون السجاد الرائع وبعض المنتجات

الصوفية الأخرى، وهناك أيضًا القبعة المزخرفة ذات الحواف الأربعة المزينة بأنماط النقوش الملونة، التي اكتسبت شهرة واسعة لدى السيَّاح في الداخل والخارج. وعند سفح جبل كونلون، وتحديدًا في هيتيان، يستخدم الأيغور الأحجار الثمينة المستخرجة من هذا الجبل لصنع منحوتات ذات شهرة عالمية.

يمارس الأيغور حاليًّا مزيدًا من الأنشطة التجارية تماشيًا مع تعميق الإصلاح والانفتاح الذي تشهده البلاد، وتعد مدينة كاشغر، على الجانب الشرقي لهضبة بامير، أهم مركز تجاري في شمال غرب الصين، وإذا سار المرء في بازارات كاشغر سيرى كثيرًا من منتجات الحرف اليدوية ذات المزايا واللمسات المحلية، إضافةً إلى الفواكه الشهية المنتشرة في كل الأرجاء، وتشكل بازارات كاشغر جزءًا لا يتجزأ من مفاتن المدينة التي تجذب القريب والبعيد.

يمتلك الأيغور لغتهم المنطوقة والمكتوبة الخاصة، والأدب الأيغوري مملوء بالقصص الشعبية الرائعة، التي انتقلت من جيل إلى جيل، وشخصية «أفانتي»، واحدة من أكثر الأساطير شعبيةً في شينجيانغ، وهي معروفة أيضًا في الصين والعالم.

تمثّل شينجيانغ موطنًا لقوميات أخرى، مثل: الهان، والقازاق، وهوي، والقيرغيز، ورجالهم ونساؤهم، كبارهم وصغارهم، ماهرون في ركوب الخيل، والرجال مغرمون بالمصارعة أيضًا. أما أبناء قومية القيرغيز فهم مهذَّبون ومضيافون، ويخدمون الضيف ويكرمونه بأفضل ما لديهم من الأطعمة، وخصوصًا رأس الخروف الذي يعدُّ طبقًا مميزًا.

طريق الحرير

ترجع تسمية طريق الحرير إلى طريق التجارة القديم المعروف الذي يمر من تشانغآن (شيآن حاليًّا)، عبر الجزء الشرقي من قانسو ورواق خِشي إلى طريق يونمن وطريق يانغقوان، ثم يتشعب للدخول إلى شينجيانغ، ومنها إلى آسيا الوسطى وأوروبا والهند. وكان يسمى بطريق الحرير؛ لأن الحرير كان أغلى سلعة تُنقل عبره. ومع وجود طرق أخرى لحمل السلع غير الحرير؛ تغيَّر مسار هذا الطريق عدة مرات عبر القرون. وفي الواقع، فإنَّ طريق الحرير هو اسم عام للطرق البرية المستخدمة من قبل التجار لنقل البضائع من الصين إلى وسط آسيا وشرقيها وغربيها وأوروبا والهند، ولأنه طريق تجاري وحضاري بين الشرق والغرب، فقد قام بدور مهم في التاريخ.

يشمل طريق الحرير ثلاثة أجزاء في الصين، وهي: الجزء الشرقي الذي يبدأ من شيآن وينتهي في قانسو، والجزء الأوسط وهو ممر خِشي، والجزء الغربي يمر عبر شينجيانغ. واستخدم طريق الحرير أول مرة خلال فترة أسرة هان الغربية قبل نحو ٢٠٠٠ سنة، عندما قام الرحالة العظيم تشانغ تشيان بعدة رحلات شاقة إلى شييوي (المناطق الغربية)، بوصفه مبعوثًا من الأباطرة الصينيين، وبفضل جهوده المضنية وافقت مدن (دويلات) في المناطق الغربية على الانضمام إلى سيادة أسرة هان الغربية، وهذا الأمر مهّد الطريق لسلسة رحلات عبر طريق الحرير. لقد شهد طريق الحرير عصره الذهبي خلال حكم أسرة تانغ، وكان يوصف بـ «الطريق الذي لا يخلو من أثر التجار والمبعوثين». وساعدت نهضة طريق الحرير في تطوير اقتصاد المناطق وتنميتها على طول الطريق، مع قيام كثير من المدن والبلدات العامرة وتطورها، مثل بلدة وو وي،

وتشانغيه، وجيوتشيوان، ودونهوانغ، في ممر خِشي. وقد أدَّى الطريق دورًا مهمًّا في التواصل الحضاري والثقافي والتجاري بين الشرق والغرب. وعبر هذا الطريق، توجهت بضائع مثل الحرير، واليشم، والبضائع الحديدية، وكثير من منتجات الحرف اليدوية، وكذلك المعلومات والمعارف المتعلقة بزراعة الفواكه والثمار وتربيتها، مثل الخوخ والبرقوق والمشمش، وتقنيات متطورة لتربية دودة قز الحرير، كذلك صناعة الورق وصهر الحديد. وفي المقابل، قدم إلى الصين عبر هذا الطريق بعض المحاصيل، مثل القطن، والعنب، والقرنفل، والجوافة، والجوز، والسمسم، والبطيخ، وكذلك الزجاج والملابس الصوفية. لقد حمل التجار نصوص البوذية من الهند، وساعدت تلك النصوص على انتشار البوذية في الصين، وبُنيت كثير من الكهوف والمعابد والنقوش على طول طريق الحرير، وهذا الأمر ترك أثرًا كبيرًا في مجتمع الصين وثقافتها.



الفواكه التي تنمو في شينجيانغ مشهورة بجودتها العالية.

ظلَّ طريق الحرير القديم يستخدم لأكثر من ١٠٠٠ سنة منذ أسرة هان الغربية، وساهمت قوميات أخرى من الشرق والغرب في ظهور ثقافة فريدة على امتداد هذه الأراضي الواسعة. وهناك عدد من الآثار الثقافية التاريخية تحكي قصة هذا الطريق التاريخي العظيم.

تُعد الكهوف من أكثر الآثار الثقافية المقامة على طول طريق الحرير، وأبرزها كهوف موقاو في دونهوانغ، ودير بينغلينغ في يونغجينغ، وكهوف مايجيشان في تيانشوي في قانسو، وكهوف كيزيل في بايتشنغ في شينجيانغ. ويرى المؤرخون وعلماء الآثار أنَّ كهوف موقاو هي أفضل الكهوف من ضمن أربعة رئيسة في الصين، وهي كهوف موقاو، وكهوف يونقانغ في داتونغ بشنشي، وكهوف لونغمن في لويانغ بخنان، وكهوف مايجيشان في تيانشوي بقانسو. وتقع كهوف موقاو عند سفح جبل مينغشا، على بعد ٢٥ كلم شرق مدينة دونهوانغ، ويبلغ طولها ٢ كلم تقريبًا، وعددها ٤٩٢ كهفًا، و٤٥٠٠٠ متر مربع من الرسوم الجدارية وأكثر من ٢٤٠٠ تمثال لبوذا منحوت ومحفوظ هناك.

جرى اكتشاف عدد كبير من الأسفار البوذية والآثار الأدبية والرسومات الثمينة في نهاية القرن التاسع عشر، في أحد الكهوف المغلقة. وأسفرت البحوث المضنية لخبراء وباحثين لمدة طويلة عن ظهور تدريجي لموضوع عالمي جديد في الدراسات العلمية، عُرِفَ بعلم دونهوانغ. لكن، من المؤسف أنَّ جزءًا كبيرًا من تلك الآثار الثقافية غير مكتمل؛ لأن بعض الباحثين الغربيين قاموا بسرقتها ونقلها إلى خارج الصين.

بدأت أهمية طريق الحرير بالتراجع بعد أسرة تانغ؛ لأن مركز اقتصاد الصين بدأ في الاتجاه جنوبا. وهناك أسباب أخرى لهذا التراجع، تتلخص في

ازدهار مواصلات البحر كطريق تجاري، وكذلك الضرر الكبير الذي لحق باقتصاد آسيا الوسطى بسبب بعض الحكام خلال أسرة يوان.



ممر خشبي جزء حيوي من طريق الحرير، مع نهايته الغربية كهوف موقاو في دنهوانغ.

لقد شهد طريق الحرير الشهير تغيُّرات كبيرة، مع أنّ مساره الأصلي لم يتغيَّر. فهو يبدأ من شيآن ويسير نحو لانتشو عبر طريق لانتشو - شينجيانغ في أورومتشي، حاضرة شينجيانغ. أما خط السكة الحديدية لانتشو - شينجيانغ، الذي يوازي طريق الحرير، فيربط تقريبًا كل المدن التاريخية على طول الطريق. وبعد ازدياد عدد الواحات على امتداد طريق الحرير، أصبحت هذه المناطق مكتفية ذاتيًا في محاصيل الحبوب الغذائية، ويتمتع بعضٌ منها بفائض منها. وهناك جزء كبير من الفواكه في المنطقة يجري تصديرها. إنَّ مدينة لانتشو هي أكبر مدينة صناعية في شمال غرب الصين، وهي أيضًا

محور نقل ومركز ثقافي. وهي قريبة من مدينة جيوتشيوان القديمة، وفيها أكبر معمل للحديد والصلب في شمال غرب الصين. وأصبحت مدينة جينتشانغ الواقعة في عمق صحراء غوبي، أكبر منجم للنيكل وقاعدة لصهره. أما حقل نفط يويمن بالقرب من معبر يويمن، الذي كان محور نقل في العصور القديمة، فهو أول قاعدة لإنتاج النفط في الصين.

وهناك مشاهد نادرة في صحاري الصين على طول طريق الحرير، وعدد كبير من الآثار الثقافية المحفوظة حتى اليوم، توفر مصدرًا غنيًّا للسياحة، وتجذب الزائرين من الداخل والخارج. وساهم خط السكك الحديدية المزدوج لانتشو- شينجيانغ (من لانتشو إلى أورومتشي) الذي أكمل في عام ١٩٩٦م، بتطوير كبير في النقل والمواصلات في المناطق الشمالية الغربية. وفي عام ١٩٩٢م، بدأ تشغيل جسر أوروآسيا القاري الجديد الممتد من مدينة ليانيونقانغ الساحلية في جيانغسو، إلى مدينة روتردام، أكبر ميناء في هولندا، مهيئًا بذلك طريقًا مباشرًا لنقل البضائع من الشرق إلى الغرب. أما البضائع المصدرة من آسيا والباسيفيك إلى أوروبا، والشرقين الأوسط والأدنى، ودول الاتحاد السوفييتي السابق، فهي تُنقل أولًا إلى ليانيونقانغ. ومن هناك تبدأ البضائع رحلتها الطويلة على خطوط السكك الحديدية ليانيونقانغ - لانتشو، وطريق لانتشو - شينجيانغ إلى ممر جبل ألاتوا على الحدود الغربية للصين. وبعدها تبدأ رحلتها إلى أوروبا ووسط آسيا وغربيها عبر خمسة طرق مختلفة بعد أن تتوقف في كازاخستان. وكانت البضائع من دول غرب آسيا إلى منطقة آسيا - الباسيفيك تُنقل بشكل مماثل من الغرب إلى الشرق، جاعِلةً جسر أوروآسيا القاري الجديد جسرًا سريعًا حقيقيًّا يربط بين آسيا وأوروبا.

هضبة تشينغهاي - التبت

تغطي هضبة تشينغهاي - التبت مساحة ٢,٥ مليون كلم٢، أي نحو ربع مساحة اليابسة في الصين، وهي أعلى هضبة في العالم، بمعدل ارتفاع يزيد على ٤٠٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر، ولذلك تسمّى «سقف العالم»، ومن ناحية التضاريس، فالهضبة مرتفعة في الجزء الشمالي الغربي، ومنخفضة في الجزء الجنوبي الشرقي، مع انحدار من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. تقع سلاسل جبال كونلون وتشيليان في الجزء الشمالي من الهضبة، والجزء الجنوبي مغطى بجبال الهيمالايا، أعلى سلسلة جبلية في العالم. وفي الجزء الشرقي للهضبة، توجد جبال هنغدوان، وفي الغرب هضبة بامير. تتميز هضبة تشينغهاي - التبت بمناطق جبلية مرتفعة، وكذلك أحواض ووديان مستوية نسبيًّا، تشكّل جميعها وحدة جغرافية نادرة.

تشمل الهضبة منطقتين إداريتين رئيستين على مستوى المقاطعة، وهما: منطقة التبت التي تتمتع بحكم ذاتي، ومقاطعة تشينغهاي. وتمتد تشينغهاي في الجزء الشمالي الشرقي من الهضبة، وفي عمق المنطقة الداخلية. وفي المقاطعة يوجد أكبر نهرين في الصين، وهما: نهر اليانغتسي والنهر الأصفر، وكذلك منبع نهر لانتسانغ، وفيها بحيرة تشينغهاي، التي أخذت المقاطعة اسمها منها، والتي تعد أكبر بحيرة مالحة في الصين. ويوجد في الجزء الغربي من تشينغهاي منطقة جافة داخلية تسمّى حوض تشايدام.

تشكّل التبت الجزء الرئيس من هضبة تشينغهاي - التبت، وهي موطن التبتيين الذين سكنوا المناطق الباردة والجبال الثلجية، وهم معروفون بحضارتهم وطريقة حياتهم الفريدة.

سقف العالم

ظلَّ الجيولوجيون وعلماء الأرض الآخرون من داخل الصين وخارجها يجرون البحوث حول تشَكُّل هضبة تشينغهاي – التبت، ورأى بعض العلماء أنَّ حقيقتها قد تُحدِث ثورةً في الدراسات المتعلقة بتشكيل مساحات اليابسة في العالم. ووفقًا لنتائج بحث مُتفق عليها، كانت هذه الهضبة مساحةً واسعةً من المحيط، ولم تظهر إلى الوجود إلا قبل مليوني سنة، وقد نشأت الأراضي القاحلة والباردة بعد ارتفاع عدة قارات واسعة.

واستنادًا إلى نظرية الصفائح التكتونية الشائعة، فقد تشكَّلت الهضبة بعد انخفاض مستوى المحيط في فترات ما قبل التاريخ، وارتفعت شبه القارة الهندية تدريجيًا، واصطدمت بصفيحة أوروآسيا في الشمال. وأجرى العلماء كثيرًا من الدراسات على هضبة تشينغهاي – التبت للعثور على إثباتات لنظرية التصادم. وقد عُثر على عدد كبير من متحجرات مخلوقات بحرية قديمة في أحجار الهيمالايا في الجزء الجنوبي من الهضبة، والتي اكتُشفت أيضًا في أودية نهر يارلونغ تسانغبو في الجزء الشمالي من الهيمالايا. وأوضحت الدراسات أنَّ سبب تشكُّل كثير من أنواع الأحجار، كان بفعل ضغط القشرة، وهذه الاكتشافات قدمت خدمة كبيرة للعلماء في بحوثهم.

لقد أدى ظهور هضبة تشينغهاي – التبت إلى تغيُّر كبير في المناخ العالمي، وخصوصًا في شرق آسيا. فقد بدأت التغيُّرات منذ نحو ١٠,٠٠٠ سنة، فتغيَّر الجو الرطب والدافئ تدريجيًا في الهضبة إلى بارد وجاف؛ وهذا أدى إلى اضمحلال عدد من البحيرات أو اختفائها. وساعد ارتفاع الهضبة في تغيير دورة الغلاف الجوي أيضًا، وأدَّى بدوره إلى رياح موسمية أقوى في شرق آسيا،

ومناخ أكثر جفافًا في الجزء الغربي من الصين، وتأثيرًا أكثر وضوحًا للرياح الموسمية في المناطق الشرقية.

وتبقى هضبة تشينغهاي – التبت منطقة ذات قشرة أرضية نشطة، إذ إنَّ هناك كثيرًا من الينابيع الحارة، بعضها بدرجة حرارة عالية، وهذا ما يوفر مصادر حرارة جوفية غنية. وتعدّ الزلازل ظاهرة متكررة في الجزء الشرقي من الهضبة؛ ففي القرن العشرين وحده، سُجلت ستة زلازل كبيرة بقوة (٨) أو أكثر على مقياس ريختر، وأظهرت الدراسات العلمية أنَّ الهيمالايا ما تزال ترتفع.



نهر يارلونغ تسانغيو يشق طريقه عبر الهملايا، في تحول حاد نحو الجنوب مما شكل وادي يارلونغ تسانغيو الكبير.

مناظر رائعة على الهضبة

مناخ هضبة تشينغهاي – التبت هو مناخ مثالي للهضاب المرتفعة، ففيه أشعة شمس قوية ودرجات حرارة منخفضة مع فرق يومي أكبر وفرق سنوي أصغر، وهواء ضعيف ونسبة أكسجين منخفضة. ويشعر المرء عند نزوله من الطائرة في مطار جونجا لاسا، بضيق في التنفس، وزيادة في دقات القلب

ودوار وصداع. وهي أعراض عادية لمرض المرتفعات العالية، وتنجم عن نقص الأكسجين. من ناحية أخرى، فإنَّ الشمس في لاسا، حاضرة منطقة التبت التي تتمتع بحكم ذاتي، أكثر سطوعًا، والسماء أكثر زرقةً من الأماكن الأخرى.

وتحظى الرحلة من تشينغهاي إلى التبت بمناظر طبيعية رائعة، إذ تنهض هناك جبال مغطاة بالثلوج، وتمتد مساحات شاسعة من الصحاري المرتفعة، وتنتشر قطعان حيوان الياك البري التبتي التي ترعى في المناطق الخضراء، إلا أنه من الصعب رؤية بشر هناك، بسبب المناخ القاسي.

فالرياح القوية، والتغيرات المناخية الشديدة، والأجواء القاسية أمر شائع على هضبة تشينغهاي – التبت. ولكن الحيوانات والنباتات على الهضبة تكيَّفت بشكل عجيب مع تلك البيئة القاسية. فالنباتات هناك غالبًا ما تكون صغيرة، ولها فترة نمو قصيرة، وقشرة سميكة، مع زغب يحميها من أشعة الشمس القوية والرياح ودرجات الحرارة المنخفضة. ولديها أيضًا جذور تقاوم الجفاف. وطوَّرت الحيوانات أيضًا طرق معيشتها، وأبرز ما يميزها هو قلوبها ورئاتها القوية. ونسبة هيموجلوبين الدم لدى حيوانات الهضبة أعلى من نظيراتها في السهول، وهذا يساعدها على معالجة مشكلة نسبة الأكسجين المنخفضة.

ويعدُّ الكاريس المنخفض أو(كوبريسيا أو فيستوكا روبرا) هو النبات الأكثر شيوعًا في الهضبة، ويمكن العثور عليه في كل مكان تقريبًا على الهضبة، إذ يبدو من بعيد مثل سجادة خضراء.

ويُعد الكاريس أفضل غذاء للخراف التبتية لغناه بالمواد الغذائية، التي تمثّل مع الياك البري التبتي، المواشي الرئيسة على الهضبة. ويغطي حيوان الياك البري صوف طويل يشبه المعطف، يحميه من برد التبت القارس، وهذه

الحيوانات القوية والصلبة هي أفضل صديق للتبتيين، الذين يسمّونها «سفينة الهضبة».

وهناك أيضًا كثير من البحيرات ذات المياه الصافية كالبلور، منتشرة في الهضبة. والمناطق المستوية المحيطة بالبحيرات هي أفضل المراعي، لأنها تتميز بكثرة المياه وبدرجات الحرارة المرتفعة نسبيًا، وهو ما يساعد على نمو نباتات زاهية هناك. وفي الجزء الجنوبي من الهضبة، يُزرع شعير وقمح المرتفعات وبعض أنواع فول الصويا، التي تنمو في وديان نهر يارلونغ تسانغبو، حيث الارتفاع المناسب ودرجات الحرارة الملائمة وتُحصد هذه المحاصيل مرة واحدة في السنة. وتتميز منطقة الوادي بمحصول وافر بفضل الشمس القوية، فعلى سبيل المثال، يمكن أن تزن حبة البطاطس التي تنمو في التبت نحو ٥٠٠ جرام، وقد يصل وزن الفجل الأحمر لما بين ٢ كيلوجرام أو ثلاثة كيلوجرامات. وتولي الحكومة المركزية اهتمامًا كبيرًا للزراعة في التبت. وقامت ببناء عدد من مراكز البحوث الزراعية في لاسا لتوفير عدة أنواع من المحاصيل، وتعميم زراعة القمح، وأثمرت هذه الجهود عن نتائج كبيرة، إذ إنَّ كثيرًا من الناس اتجهوا إلى زراعته.

يسمى الجزء الشمالي من الهضبة تشيانغتانغ، وهو أرضٌ غير مسكونة ذات جو بارد جدًا وأمطار قليلة وغطاء نباتي ضئيل، ولكنها جنة للحيوانات البرية، أما وديان لاسا ونهرا نيانتشو ونيبانغ، وهما فرعان من يارلونغ تسانغبو، فهي امتدادات لسهول أصغر. وهي «مخازن غلال» التبت بفضل نمو المحاصيل الزراعية، مثل الشعير والقمح، وتقع لاسا، وشيكاتسي ثاني أكبر مدينة في التبت، على نهري لاسا ونيانتشو.

تاريخ التبت وتقاليدها

التبتيون هم أكبر أقلية قومية على هضبة تشينغهاي – التبت، إذ يشكلون أكثر من ٩٠٪ من إجمالي السكان هناك. ومنطقة التبت هي أيضًا موطن قوميات هان، ومنغوليا، ومنبا، ولوبا.

وتُظهِر السجلات التاريخية أنَّ التبتيين عاشوا في الأصل في وادي نهر يالونغ، فرع من نهر يارلونغ تسانغبو، في الجزء الجنوبي من التبت. وقد تمكن البطل التبتي سونغ تسان قامبو من توحيد التبت بأكملها في القرن السادس، وأوفد مبعوثين إلى تشانغآن (شيآن حاليًّا)، عاصمة أسرة تانغ، لزيارة الإمبراطور تاي تسونغ، وعبّر المبعوثون عن رغبة سونغ تسان قامبو القوية في تقوية العلاقات بين التبت وأسرة تانغ، ولقيت تلك الرغبة ترحيبًا حارًّا من الإمبراطور تانغ، الذي زوّج الأميرة الموهوبة وين تشنغ إلى سونغ تسان قامبو، وقامت الأميرة بنقل تقنيات زراعية متطورة وثقافة من وسط الصين إلى التبت، وهذا الأمر ساعد كثيرًا على دفع التطور الزراعي والاقتصادي في التبت.

يعتنق التبتيون البوذية على طريقة الماهايانا، التي وفدت إليهم من الهند في القرن السابع، ومنذ ذلك الحين دمجت معها بعض العناصر المحلية وأنتجت ما يُعرف بالبوذية التبتية. أسهمت دعوات الحكام المحليين إلى البوذية في القرن الثالث عشر في انتشارها بشكل كبير، ونتيجة لذلك أصبح في التبت الآلاف من المعابد والمباني الدينية الأخرى.

لقد تطورت حروف التهجي التبتية قبل عصور. وكان لـ(مخطوطات التبتاكا البوذية الكلاسيكية)، و(سيرة ميلاريبا) الأدبية الشعبية، وعدد من الأعمال الطبية التي تسجل كثيرًا من أساليب الطب والعقاقير التبتية التقليدية، والكتب الفلكية في التقويم التبتي، أثرٌ مهم في الأدب الصيني.

وساعدت الحضارة والحياة العريقتان للتبتيين في الهضبة في جعلهم أقوياء، مثابرين، متفائلين، مقتصدين وبسطاء. يرتدي التبتيون عادةً جلبابًا طويلًا وأحذيةً طويلة وأنواعًا مختلفة من الحُلي. تشكّل اللحوم وشعير المرتفعات جزءًا كبيرًا من غذاء التبتيين، ويُعدّ الشاي بالزبدة والمشروبات معتدلة المذاق المصنوعة من شعير المرتفعات من الضروريات اليومية لديهم أيضًا. ومن زاوية أخرى، تتكون مساكنهم الحجرية من طابقين أو ثلاثة طوابق، وفيها نوافذ صغيرة. وعلى عكس الرعاة من قومية منغوليا الذين يعيشون في خيام دائرية، يفضل الرعاة التبتيون الخيام المستطيلة المصنوعة من الجلد.



حيوان الياك البري التبتي، يتميز بالقوة والتكيف مع ظروف هضبة تشينغهاي-التبت. إنه حيوان قوي يجيد تسلق الجبال وحمل أوزان ثقيلة ولهذا يسمى «سفينة الهضبة».

يجيد أبناء قومية التبت الغناء والرقص، والموسيقى لديهم عذبة ذات إيقاعات قوية، والرقصات لديهم جميلة منها رقصة «قوتشوانغ» (رقصة دائرية) ورقصة «تيتا» (رقصة التحريك السريع للأرجل)، وغيرهما من الرقصات الشائعة.



مهرجان تشميس لوحة بوذا التبتي، حيث يعبر التبتيون عن الاحترام لتماثيل بوذا، ويصادف عادةً اليوم الخامس عشر من أول شهر قمري. في مثل هذا اليوم يجري إخراج اللوحات القماشية والحريرية كافة، من المعابد لتعرض على الأراضي المنبسطة والمنحدرات أو الصخور بالقرب من المعبد لتشميسها.

ولدى التبتيين أعياد ومهرجانات كثيرة، مثل السنة التبتية الجديدة، وأعياد شيويدون، وأونجكور، ومهرجان الاستحمام. ويُسمَّى مهرجان شيودون بمهرجان الزبادي أيضًا، ويُحتفل به في المناطق الرعوية خاصة، ومهرجان أونجكور في المناطق الزراعية. جميع التبتيين يحتفلون بالسنة التبتية الجديدة ومهرجان الاستحمام. واحتفالات السنة التبتية الجديدة مشابهة لما هو موجود في المناطق الداخلية، بينما يتميز مهرجان الاستحمام بمظاهر تقليدية لأهالي التبت. في مهرجان الاستحمام، الذي يصادف أوائل يوليو، يقفز جميع التبتيين في الأنهار على أمل «غسل» الحظ السيّئ للسنة الماضية والصلاة لسنة جديدة سعيدة.

حوض تشايدام

يشتمل حوض تشايدام عمومًا على حوض تشايدام وحوض بحيرة تشينغهاي، وهو منطقة منخفضة نسبيًا في الجزء الشمالي من هضبة تشينغهاي – التبت. كلمة تشايدام في المنغولية تعني «المستنقع المالح»، وهي تُجسّد حقيقة هذا الحوض. ومع انتشار أحواض البحيرة، والأراضي والمستنقعات المنخفضة والمالحة، كان حوض تشايدام شبه مهجور قبل الخمسينيات، برغم وفرة المصادر الطبيعية فيه.

وخلال العقود الأربعة الماضية، أنفقت الحكومة المركزية أموالًا كثيرة لإجراء دراسات على نطاق واسع في حوض تشايدام، الذي يُسَّمى أيضًا «حوض الكنوز». وساعدت جهود الحكومة على استعادة الأراضي الزراعية في المناطق التي تتهيَّأ فيها الظروف الموضوعية. وأقامت الحكومة مجموعة كبيرة من المؤسسات الصناعية والمعدنية في المناطق الغنية بالموارد. وبُنيت شبكات واسعة من الطرق والسكك الحديدية في الحوض، ونتيجة لذلك بدأ حوض تشايدام، الذي كان مجدبًا ذات يوم، أداء دور مهم في نمو الاقتصاد الصيني.

أمّا بحيرة تشينغهاي، التي تبدو مثل معين غير منتظم، فيبلغ طولها أكثر من ١٠٠ كلم من الشرق إلى الغرب، وأكثر من ٦٠ كلم من الشمال إلى الجنوب. وتغطي مساحة ٤٥٨٣ كلم٢، مُحاطةً بالجبال، مع امتداد واسع من الأراضي المستوية على شواطئها، حيث الأراضي العشبية الخضراء الممتازة لرعي المواشي والحيوانات الأليفة الأخرى.

وتتلون مياه بحيرة تشينغهاي بخليط من اللونين الأزرق والأسود، وهما

اللونان اللذان جاء اسم البحيرة منهما. وتسمى البحيرة باللغة المنغولية «كوكونوير» وتعني البحيرة ذات اللون الأزرق الداكن. تحتوي البحيرة على جزيرتين صغيرتين، وهما: تل هايشين وجزيرة الطيور. والأخيرة تُعد جنة للطيور، إذ تتخذها مئات آلاف الطيور مأوى دائمًا أو مؤقتًا، وفي الصيف، تتجمع في الجزيرة أعداد كبيرة من الطيور المهاجرة، من بينها طيور الإوز ذات الرأس المدبب، ونوارس البلاس، والبط الأصفر، والغاق، والنوارس ذات الرأس البني، وطائر الكركي ذو الرقبة السوداء، التي تأتي من الجنوب إلى الجزيرة المنعزلة، إذ تبني أعشاشها لتبيض فيها ثم تفقس وتنمو حتى يحين موسم العودة إلى الجنوب في الشتاء. ولحماية هذه الطيور وموطنها، قامت الحكومة المركزية ببناء محميات طبيعية في جزيرة الطيور.



خريطة عبر قمر صناعي لبحيرة تشينغهاي، أكبر بحيرة داخلية مالحة في الصين، أخذت اسمها من لون المياه الأزرق والأسود.

وخلال السنوات الأخيرة، انخفض مستوى مياه بحيرة تشينغهاي كثيرًا وانكمش حجمها. وكانت جزيرة الطيور أرضًا صغيرة قبل السبعينيات، ولكن انخفاض المياه في سنة ١٩٧٦م، أدى إلى تقلّص البحيرة وظهور مناطق ضحلة، شكَّلت جسرًا بين الجزيرة وضفة البحيرة، وهذا جعل مهمة حماية الجزيرة والطيور أكثر صعوبةً وتعقيدًا.

وتشير تقارير مؤكدةً أنَّ حوض تشايدام يحتوي على احتياطيات وفيرة من الموارد الطبيعية مثل: الملح، والرصاص، والزنك، والنفط، والفحم. وتتركز مخزونات الملح في البحيرات المالحة. ويقرب مخزون احتياطي الملح الصالح للاستخدام في تشايدام نحو ٦٠ مليار طن، وهو الأعلى بين جميع مناطق الصين. والبحيرات المالحة غنية بالبورون، والليثيوم، والمغنيسيوم، والبوتاسيوم، وأملاح معدنية مهمة أخرى أيضًا. ويوجد البوتاسيوم أساسًا في بحيرة كارهان المالحة، باحتياطي محدد يصل إلى ٣٠٠ مليون طن، مُشكلًا أكثر من ٧٠٪ من الإجمالي الوطني. وأُجريت بحوث واستكشافات واسعة النطاق في بحيرة تشاكا المالحة وحولها في الجزء الشرقي من حوض تشايدام، وهناك مصنع سماد بوتاسيوم، هو الأكبر من نوعه في البلاد، بناتج سنوي يصل إلى نحو ٢٠٠ ألف طن، يقع بالقرب من بحيرة كارهان المالحة.

وعُثر على احتياطيات ضخمة من الزنك والرصاص في جبل شيكوانغ في الجزء الشمالي الشرقي من حوض تشايدام، ويُنتج منجم الجبل ما يقرب من مليون طن من المعادن في السنة.

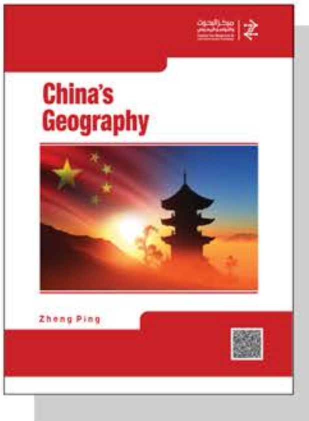
ويتركز احتياطي النفط حول البحيرة الباردة في الجزء الغربي في حوض تشايدام. وقد بدأ بالفعل العمل على استخراج النفط هناك. وجرى بناء مصفاة نفط في جلمود، التي حظيت بأهمية إستراتيجية عظيمة، لأنها توفر النفط للمناطق المحلية والتبت.



جزيرة الطيور في بحيرة تشينغهاي، حيث أسراب ضخمة تتجمع من الجنوب لتبني أعشاشها وتتكاثر خلال الصيف والخريف.

هذا الكتاب

جُغرَافيّة الصِّينْ



China's Geography

Zheng Ping
تشنغ بينغ

تقع الصين في شرقي قارة أورو – آسيا، التي تعدُّ أكبر قارة في العالم، ويحتضنها من الشرق، المحيط الهادئ الذي يعدُّ أكبر محيط في العالم. وبرغم وقوعها في هذه القارة، إلا أنها لا تملك مواصلات سلسة مع دول القارة ومناطقها. تتاخم الصين غابات تايجا الممتدة إلى آلاف الكيلومترات شمالًا، وتواجه في غربها صحاري شاسعة غير مسكونة تقريبًا، وفي الجنوب الغربي تشمخ جبال عالية. أما هضبة تشينغهاي – التبت، وهي أعلى هضبة في العالم، وجبال الهمالايا التي عليها أعلى قمة جبلية في العالم (القمة الرئيسة جومولانغما)، فتشكل حاجزًا طبيعيًّا يفصل الصين عن شبه القارة في جنوب آسيا.

وبفضل الموقع الجغرافي المستقل بحدوده الطبيعية الفاصلة، بقيت البلاد بعيدة عن تدخل القوى الأجنبية، وهذا ما ساهم أكثر في خلق ثقافة فريدة ظلت خالدة ومتواصلة، ومميزة تمامًا من الثقافات الغربية.

تتبنى الصين بجدية ونشاط سياسة الانفتاح على العالم منذ عام ١٩٧٨م وحتى الآن، وترحب بالأجانب القادمين إليها، وبكل أشكال الاستثمارات ورؤوس الأموال والتقنيات. وفي الوقت نفسه، فإنها تسعى من جانبها إلى التوجُّه إلى العالم والتفاعل معه.

إنّ معرفة جغرافية الصين شرط ضروري لكل من يريد معرفة الصين بشكل جيد. وهذا الكتاب عن جغرافية الصين مُخصص لتعريف القارئ الكريم بالمناطق الجغرافية للبلاد كافة، والحقائق والمعلومات المتعلقة بها. وعندما يكمل القارئ قراءة هذا الكتاب، سيكتسب معلومات حديثة وشاملة عن الصين، هذا البلد الواقع في "الشرق الأقصى".

www.crik.sa

مركز البحوث والتواصل المعرفي
Center for Research & Intercommunication Knowledge